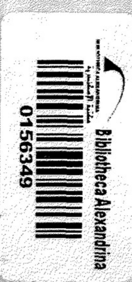
مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية
يشرف على إصدارها: الدكتور على عبد الواحد وافى، رئيس الجمعية - والدكتور عثمان أمين، سكرتيرها العام

اللغة والمجتمع

تأليف

الدكتور على عبد الواحد وافى
دكتور فى الآداب من جامعة باريس
أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م



ملتزمو الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية
يشرف على إصدارها: الدكتور على عبد الواحد وافى، رئيس الجمعية — والدكتور عثمان أمين، سكرتيرها العام

اللغة والمجتمع

تأليف
الدكتور على عبد الواحد وافى
دكتور فى الآداب من جامعة باريس
أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

١٣٦٤هـ — ١٩٤٥م

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تمتاز الظواهر الاجتماعية ـ وهى التى يتألف من دراستها موضوع علم الاجتماع La Sociologie ـ بصفات كثيرة من أهمها الخواص الثلاث الآتية :

١ — أنها تتمثل فى نظم عامة يشترك فى اتباعها أفراد مجتمع ما ، ويتخذونها أساساً لتنظيم حياتهم الجمعية ، وتنسيق العلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض أو تربطهم بغيرهم .

٢ — أنها ليست من صنع الأفراد ؛ وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث من تلقاء نفسها عن حياة الجماعات ، ومقتضيات العمران . وهـذا هو ما يعنيه علماء الاجتماع إذ يقررون أنها من « نتاج العقل الجمعى » .

٣ — أن خروج الفرد على نظام منهـا يلقى من المجتمع مقاومة تأخذه بعقاب مادّى أو أدبى ، أو تلغى عمله وتعتبره كأنه لم يكن ، أو تحول بينه وبين ما يبتغيه من وراء مخالفته وتجعل أعماله ضرباً من ضروب العبث العقيم ، أو تسلط عليه أكثر من جزاء واحد من هذه الجزاءات[1] .

وهذه الخواص الثلاث تتوافر فى اللغة على أكمل ما يكون :

---

(١) يرجع الفضل فى إبراز هذه الخواص وتوضيحها إلى العلامة دوركايم فى كتابه: « قواعد المنهج الاجتماعى » Durkheim : Les Règles de la Méthode Sociologique

فاللغة فى كل مجتمع نظام عام يشترك الأفراد فى اتباعه ، ويتخذونه أساساً للتعبير عما يجول بخواطرهم ، وفى تفاهمهم بعضهم مع بعض .

واللغة ليست من الأمور التى يصنعها فرد معين أو أفراد معينون ، وإنما تخلقها طبيعة الاجتماع ، وتنبعث عن الحياة الجمعية ، وما تقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر ، وتبادل للأفكار . وكل فرد منا ينشأ فيجد بين يديه نظاماً لغوياً يسير عليه مجتمعه ، فيتلقاه عنه تلقياً بطريق التعلم والتقليد ، كما يتلقى عنه سائر النظم الاجتماعية الأخرى ، ويصب أصواته فى قوالبه ، ويحتذيه فى تفاهمه وتعبيره .

واللغة من الأمور التى يرى كل فرد نفسه مضطراً إلى الخضوع لما ترسمه . وكل خروج على نظامها ، ولو كان عن خطأ أو جهل ، يلقى من المجتمع مقاومة تكفل رد الأمور إلى نصابها الصحيح ، وتأخذ المخالف ببعض أنواع الجزاء . فإذا أخطأ فرد فى نطق كلمة ما ، أو استخدمها فى غير مدلولها ، أو خرج فى تركيب عبارته عن القواعد التى ترسمها لغته ، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه ، ورموه بالغفلة والجهل ، وقد يحول ذلك دون فهمهم لما يريد التعبير عنه . وليس هذا مقصوراً على الخطأ الذى يسع الناطق إصلاحه ؛ بل إن الخطأ الذى لا يمكنه إصلاحه ، لنشأته مثلا عن خلل طبيعى فى أعضاء النطق ، قد يثير هو نفسه لدى السامعين بعض ما يثيره غيره من الأخطاء ، ويجر على صاحبه بعض آلام ومتاعب فى تعبيره وتفاهمه[1] . وإذا حاول فرد أن يخرج كل الخروج على النظام اللغوى ، بأن يخترع لنفسه لغة يتفاهم بها ، فان عمله هذا يصبح ضرباً من ضروب العبث المقيم ، إذ لن يجد من يفهم حديثه ، ولن يستطيع إلى نشر مخترعه هذا سبيلا .

(١) من طريف ما يروى بهذا الصدد أن بعض خطباء العرب المصابين باللثغة كانوا يرهقون أنفسهم عسراً من أمرهم فى إعداد خطبهم حتى لا يبدو فيها أثر للثغتهم ، فكانوا يحرصون على ألا تشتمل أية كلمة منها على الصوت الذى لا يقوى لسانهم على النطق به من مخرجه الصحيح .

فاللغة إذن ظاهرة اجتماعية . وهى بوصفها هذا تؤلف موضوعا من موضوعات علم الاجتماع[1]. وسندرسها فى هذه الرسالة على منهج هذا العلم ومن وجهة نظره وأغراضه.

ودراسة أية ظاهرة اجتماعية على منهج علم الاجتماع ومن وجهة نظره وأغراضه تقتضى توضيح حقيقتين هامتين :

(إحداهما) القوانين التى تخضع لها هذه الظاهرة فى حياتها وتطورها وما يعتورها من شئون .

(وثانيتهما) مبلغ تأثرها بما عداها من الظواهر الاجتماعية الأخرى .

وهاتان الحقيقتان هما اللتان سنعنى بتوضيحهما فى هذه الرسالة . وسنوضحهما على ضوء دراستنا لثلاثة موضوعات من أهم موضوعات اللغة ، وهى : تطور اللغة وارتقاؤها ؛ وصراع اللغات بعضها مع بعض ؛ وتفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

وسوف يظهر لنا من دراستنا لهذه الموضوعات الثلاثة أن اللغة ـ شأنها فى ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ـ لا تسير تبعاً للأهواء والمصادفات ، ولا وفقاً لإرادة الأفراد ؛ وإنما تخضع فى سيرها لقوانين ثابتة مطردة ، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدى إليه . وهذه هى أولى الحقيقتين اللتين يدور حولهما محور بحثنا فى هذه الرسالة .

---

(١) أنشأ علماء الاجتماع لدراسة اللغة بوصفها هذا فرعاً هاماً من فروع علمهم سموه « علم الاجتماع اللغوى » أو « السوسيولوجيا اللغوية Sociologie Linguistique » . وقد تضافر على النهوض بهذا الفرع أعضاء المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى أنشأها العلامة دوركايم Durkheim فى أوائل القرن الحاضر وطائفة من أئمة علماء اللغة انضمت إلى هذه المدرسة واعتنقت مذهبها ، ومن أشهرهم الأساتذة دوسوسور ومييه وفندريس De Saussure; Meillet; Vendryes .

وسوف يظهر لنا كذلك من دراستنا لهذه الموضوعات الثلاثة أن اللغة ـ شأنها في ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ـ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بماعداها من ظاهرات العمران ، وأن أهم العوامل التي تؤثر فيها ترجع إلى هذه الظاهرات . وهذه هي ثانية الحقيقتين اللتين تتجه دراستنا إلى إبرازهما في هذه الرسالة .

غير أنه سيظهر لنا كذلك أن اللغة قد تتأثر في بعض نواحيها ، بظواهر غير اجتماعية كالظواهر الفيزيولوجية والنفسية والجغرافية ؛ وإن كان أثر هذه الظواهر ليس شيئاً مذكوراً بجانب أثر الظواهر الاجتماعية الخالصة .

ولذلك سنعمل في خاتمة الكتاب ، بعد أن نستخلص الحقيقتين السابقتين ، على تحرير الحقيقة الثانية منهما في صورة تضع الأمور في نصابها الصحيح ، وتبين فساد ما يذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع كالعلامة دوسوسور De Saussure ومن نحا نحوه إذ يقررون أن جميع المؤثرات في مظاهر اللغة ترجع إلى مؤثرات اجتماعية .

فرسالتنا تشتمل إذن على ثلاثة فصول وخاتمة :

الفصل الأول في تطور اللغة وارتقائها ؛

والفصل الثاني في صراع اللغات بعضها مع بعض ؛

والفصل الثالث في انشعاب اللغة الواحدة إلى عدة لغات ؛

وتتضمن الخاتمة خلاصة ما تهدينا إليه دراستنا في الفصول الثلاثة السابقة بصدد الحقيقتين اللتين ترمي بحوثنا إلى توضيحهما ، وهما : القوانين التي تسير عليها اللغة في مختلف مظاهر حياتها ؛ ومبلغ تأثرها بالظواهر الاجتماعية الأخرى .

٢٤ من ذي الحجة سنة ١٣٦٤
٢٩ نوفبر سنة ١٩٤٥

علي عبد الواحد وافي

الفَصْلُ الأوّل

تطور اللغة وارتقاؤها

تتأثر اللغة فى تطورها وارتقائها بعوامل كثيرة يرجع أهمها إلى ست طوائف :

(إحداها) عوامل اجتماعية خالصة تتمثل فى حضارة الأمة ، ونظمها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، وعقائدها ، ومظاهر نشاطها العملى والعقلى، وثقافتها العامة ، واتجاهاتها الفكرية ، ومناحى وجدانها ونزوعها ... وهلم جراً .

(وثانيتها) تأثر اللغة بلغات أخرى .

(وثالثتها) عوامل أدبية تتمثل فيما تنتجه قرائح الناطقين باللغة، وماتبذله معاهد التعليم والمجامع اللغوية وما إليها فى سبيل حمايتها والارتقاء بها .

(ورابعتها) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف .

(وخامستها) عوامل طبيعية تتمثل فى الظواهر الجغرافية والفيزيولوجية . . . وما إليها .

(وسادستها) عوامل لغوية ترجع إلى طبيعة اللغة نفسها وطبيعة أصـواتها وقواعدها ومتنها ... وهلم جراً . وذلك أن عناصر اللغة نفسها قد تنطوى على بعض نواح تؤثر فى تطورها .

وسنقف على كل طائفة من هذه الطوائف الست فقرة خاصة ؛ ثم نختم الفصل بفقرة سابعة نستخلص فيها ما تهدينا إليه هذه الدراسة بصدد قوانين التطور اللغوى وأثر الظواهر الاجتماعية فى سيره[1] .

(١) أثر العوامل الاجتماعية فى خصائص اللغة وتطورها

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة ، ونظمها، وتقاليدها ، وعقائدها ، واتجاهاتها العقلية ، ودرجة ثقافتها ، ونظرها إلى الحياة ، وشئونها الاجتماعية العامة . . . وما إلى ذلك . فكل تطور يحدث فى ناحية من هذه النواحى يتردد صداه فى أداة التعبير. ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب : فبالوقوف على المراحل التى اجتازتها لغة ما ، وعلى ضوء خصائصها فى كل مرحلة منها ، يمكن استخلاص الأدوار التى مر بها أهلها فى مختلف مظاهر حياتهم .

فكلما اتسعت حضارة الأمة ، وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ، ورقى تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية ، نهضت لغتها ، وسمت أساليبها ، وتعددت فيها فنون القول ، ودقت معانى مفرداتها القديمة ، ودخلت فيها مفردات أخرى عن طريق الوضع والاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة . . . وهلم جراً . واللغة العربية أصدق شاهد على ما نقول . فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام ، ومن النطاق العربى الضيق الذى امتازت به مدنيتهم فى عصر

---

(١) سنقتصر فى جميع فقرات هـذا الفصل على ما يتعلق بالتطور اللغوى العام . أما التطور الناشئ عن صراع اللغات بعضها مع بعض أو عن انشعابها فسيكون موضوع الفصلين الثانى والثالث من هذا الكتاب .

بنى أمية إلى الأفق العالمى الواسع الذى تحولوا إليه فى عصر بنى العباس ، كان لهذين الانتقالين أجلُّ أثر فى نهضة لغتهم ورقى أساليبها واتساعها لمختلف فنون الأدب وشتى مسائل العلوم .

وانتقال الأمة من البداوة إلى الحضارة ، يهذب لغتها ، ويسمو بأساليبها ، ويوسع نطاقها ، ويزيل ما عسى أن يكون بهـــا من خشونة ، ويكسبها مرونة فى التعبير والدلالة . وإن موازنة بين حالة اللغة العربية فى عهد بداوة العرب قبل الإسلام وحالتها فى عهد حضارتهم الإسلامية ، أو بين ما كانت عليه عند أهل البادية فى عصر ما وما كانت عليه فى الحضر فى نفس هذا العصر ، لأصدق برهان على ذلك . وإن البدوى الذى لم يلهمه شيطانه فى مدحه للأمير أحسن من قوله :

أنت كالكلب فى حفاظك للعهـ   ـد وكالتيس فى قراع الخطوب

قد استطاعت قريحته ، بعد أن هذبتها حضارة بغداد ، أن تجود بمثل قوله :

عيون المهـا بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

ومظاهر النشاط الاقتصادى تطبع اللغـة كذلك بطابع خاص فى مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها . ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة فى الأمم والمناطق تبعاً لاختلافها فى نوع الإنتاج ، ونظم الاقتصاد ، وشئون الحياة المادية ، والمهنة السائدة (الزراعة ، الصناعة ، التجارة ، الصيد ، رعى الأنعام . . . الخ) . وقد تؤثر هـذه المظاهر فى أصوات اللغة نفسها . فقد يؤدى نوع العمل الذى يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم فى صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتى .

واللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها فى شئونهم الاجتماعية العامة . فعقائد الأمة ، وتقاليدها ، وما تخضع له من مبادئ فى نواحى السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة ، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم ، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة . . . كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة فى جميع مظاهرها : فى الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب . . . وهلم جرا[1] . وإليك مثلا مبلغ اتجاه الأمة إلى مبادئ المساواة أو انحرافها نحو نظام الطبقات . فإن ما تسير عليه نظمها الاجتماعية بهذا الصدد يؤثر فى مختلف نواحى لغتها حتى فى ناحية القواعد . فمخاطبة المفرد بضمير الجمع تعظيما له : (أرجو أن تتفضلوا ...) ، وإجراء الخطاب فى صيغة الإخبار عن الغائب: (يتفضل سيدى ...)، كل ذلك وما إليه من أساليب التبجيل لا يبدو فى اللغة إلا حيث ينحرف الناس عن مبادئ المساواة وتكثر الفوارق بين الطبقات . ولذلك يعد تطور هذه الضمائر فى أمة ما أصدق سجل لتطور اتجاهاتها فى هذه الشئون . فالصراع فى اللغة الفرنسية بين « tu » (أنت) و « vous » (أنتم) ، فى مخاطبة المفرد ، يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات فى الشعب الفرنسى . فقد كانت الغلبة للضمير الأول فى العصور التى سادت فيها مبادئ المساواة ، وللضمير الثانى فى العصور التى وهنت فيها هذه المبادئ . ومثل هذا يقال فى اللغة العربية. فقد كان العرب فى جاهليتهم

---

(١) من أجلّ البحوث فى هذا الموضوع وما يتصل به ما كتبه العلامة « ڤانييه » فى المجلد الثانى من مجلة « التربية » سنة ١٩٠٧ صفحات ٤٣٤ — ٤٦٣ تحت عنوان : « روح الأمة وطباعها ممثلة فى لغتها » V. Vannier : L' Esprit et les Mœurs d' une nation d' après sa langue (Revue Pédagogique 1907. T.2 p. p. 434 - 463) .

من أكثر الشعوب ميلا إلى المساواة بين الأفراد ؛ ولذلك ساد فى خطابهم ضمير المفرد ، ولم تبد فى لغتهم مظاهر المبالغة فى التبجيل . وقد سار القرآن على هذه الطريقة حتى فى توجيه الخطاب إلى الله عز وجل . ولكنهم لم يلبثوا بعد اتساع ملكهم ، واحتكاكهم بالأمم الأخرى ، وانغماسهم فى الترف ، ومحاكاتهم لأبهة الفرس وأساليبهم فى الحياة ، واتجاه خاصتهم وأغنيائهم إلى الترفع عن الدهماء وطبقات المستضعفين ، لم يلبثوا بعـــد هذا أن انحرفوا عن مبادئهم الأولى ، فانحرفت معهم أساليب لغتهم ، وساد فيها خطاب المفرد بضمير الجمع وإجراء الخطاب فى صيغة الإخبار عن الغائب ، ونفذت إليها ألفاظ « الحضرة » و «الجناب» . . . وما إلى ذلك.

واختلاف الطبقات فى بعض الأمم ، وما يفصلها من فوارق فى مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، كل ذلك يؤدى إلى التمييز بينها فى المفردات التى تطلق على شئون كل طبقة منها . وإليك مثلا المفردات التى تطلق على أنواع الدخل والأجور ؛ فإن مبلغ الاختلاف بين هذه المفردات فى أمة ما ليسجل مبلغ الاختلاف بين طبقات هذه الأمة فى مستوى الحياة ، وإن الأصل اللغوى الذى يرجع إليه كل مفرد منهـــا ليشير فى صورة ما إلى عمل الطبقة التى يطلق على دخلها ، وإلى نشاطها الاقتصادى ، ومنزلتها فى سلم الطبقات . ففى اللغة الفرنسية مثلا يطلق لفظ خاص على كل من دخل المسكين ، والخادم ، وعامل اليومية ، والعامل الدائم ، والممثل ، والصحفى ، والقسيس والجندى ، والضابط ، والموظف غير الحكومى ، والموظف الحكومى ، وصاحب المهنة الحرة كالطبيب والمحامى ، والمالك الزراعى ومن إليه ، والمساهم فى شركة ما ، والنائب البرلمانى .... وهلم جرا . وكل مفرد من هذه المفردات يشير أصله اللغوى فى

صورة ما إلى عمل الطبقة التي يطلق على دخلها ، وإلى نشاطها الاقتصادى ، ومنزلتها بالقياس لما عداها من الطبقات :

Les secours d'un indigent; les gages d'un domestique; la pay d'un journalier ; le salaire d'un ouvrier; les feux d'un acteur ; les mensualités d'un journaliste; le cusuel d'un curé; le prêt d'un soldat; le solde d'un officier; les appointements d'un employé; le traîtement d'un fonctionnaire; les honoraires d'un médecin ou d'un avocat; les rentes d'un rentier; les dividendes d'un actionnaire; l'indemnité d'un parlementaire... etc.

وكثيراً ماينجم عن اختلاف النـاس فى طبقاتهم وفئاتهم اختلاف مدلول الـكلمات وخروجها عن معانيها الأولى . ويؤدى إلى ذلك مايوجد بين الجماعات الناطقة باللغة الواحدة من فروق فى الخواص النفسية ، وفى شئون السياسة ، والاجتماع ، والثقافة ، والتربية ، ومناحى التفـكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة والتقاليد والعادات . . . وما تزاوله كل طبقة من أعمال ، وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقلية المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم ، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم ... وهلم جرا . فمن الواضح أن هذه الأمور وما إليها من شأنها أن تخرج بالـكلمات عن مدلولاتها الأولى ، وتوجه معانيها فى كل طبقة وفى كل جماعة وجهة تختلف عن وجهتها عند غيرها .

وتتشـكل اللغة كذلك بالشـكل الذى يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامعها

ونظرها إلى الحياة . فاتجاه الانجليز مثلا إلى الناحية العملية قد صبغ لغتهم بصبغة مادية فى مفرداتها ، وتراكيبها ؛ حتى أنه ليقال فيها : « دفع زيارة أو تحية أو شكراً أو انتباها » و « أنفق وقته فى كيت وكيت » و « تربح الساعة أو تخسر »
« To pay visit, compliments, attention ... » ; «How can I pay you for all your good» ; «He spent his time in ...» «The watch gains or loses»
بدلا من « أدى زيارة » و « قدم تحية أو شكرا » و « أبدى انتباها » و « قضى وقته فى عمل ما » و « الساعة تقدم أو تؤخر » .

وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب فى شئونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ينبعث كذلك صداه فى لغتهم ألفاظها وتراكيبها . فاللغة اللاتينية لا تستحي أن تعبر عن العورات والأمور المستهجنة والأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة . على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب فى التعبير عن هذه الشئون ، فتلجأ إلى المجاز فى اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول : القبل ، الدبر ، قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته ... الخ . ولقد كان لها بهذا الصدد فى ألفاظ القرآن الكريم وعباراته أسوة حسنة : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ؛ « واهجروهن فى المضاجع » ؛ « لامستم النساء » ؛ « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » ؛ « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » ؛ « فاعتزلوا النساء فى المحيض » ؛ « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » ... وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ . وما يبدو فى اللغة العربية بهذا الصدد يبدو مثله فى اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الشمالية منها . وأكثرها تحرجا فى هذه الناحية اللغة الانجليزية . فالبطن مثلا لا يعبر عنه فى

لغة التخاطب الانجليزية باسمه الصريح بل يطلق عليه فى الغالب the stomach (أى المعدة)[١] ؛ وسراويل الرجل تطلق عليها أحيانا كلمة معناها الأصلى « مالا يمكن التعبير عنه : Inexpressible[٢] ؛ وسراويل المرأة يطلق عليها كلمة معناها الأصلى « الجمع أو التركيب » Combination[٣] ... وهلم جرا.

وخصائص الأمة العقلية ، ومميزاتها فى الإدراك والوجدان والنزوع ، ومدى ثقافتها ، ومستوى تفكيرها ومنهجه ، وتفسيرها لظواهر الكون ، وفهمها لما وراء الطبيعة ... كل ذلك وما إليه ينبعث كذلك صداه فى لغتها[٤] . ففى الأمم البدائية الضعيفة التفكير ، المنحطة المدارك ، تغزر الكلمات الدالة على المحسات والأمور الجزئية ، وتنعدم أو تقل الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، وتخلو دلالة المفردات من الدقة والضبط فيكثر فيها الخلط واللبس والإبهام ، وتعرو القواعد أو تكاد تعرو من ظواهر التصريف والاشتقاق وربط عناصر الجملة والعبارة بعضها ببعض ، ويضيق متن اللغة فلا يتسع لأكثر من ضروريات الحياة . وفى كثير من الأمم البدائية ينعكس فى اللغة من مظاهر الاضطراب والإبهام ماتمتاز به عقليات الناطقين بها من

---

(١) تختصر هذه الكلمة عادة فى اللغة الدارجة فيقال tummy .

(٢) يطلق عليها غالبا فى اللغة الدارجة كلمة «Pants» وهى اختصار كلمة « بنطالون » .

(٣) تطلق هذه الكلمة على لباس مؤلف من السراويل والقميص ، أما السراويل وحدها فيطلق عليها أحيانا كلمة Bloomer وهو اسم سيدة أمريكية Mrs. Bloomer اخترعت طرازاً منه فنسب إليها (وكان يحتوى على « جاكتة » وقميص وسراويل ، ثم قصر استعمال الكلمة فيما بعد على السراويل) ؛ وأحيانا كلمة knickers وهى اختصار كلمة Knickerboker (وهذه الكلمة كانت فى الأصل اسما لشخصية روائية ألبسها المؤلف طرازاً خاصا من السراويل ، ثم شاع استعمالها فيما بعد فى سراويل السيدات) .

(٤) V. Vannier op. cit.

سذاجة وقصور ، حتى أنها لا تـكاد وحدها تبين عن معنى واضح دقيق ، وحتى أن أهلها أنفسهم ليضطرون فى أثناء حديثهم إلى الاستعانة بالحركات اليدوية والجسمية لتـكملة ماينقص تعبيرهم وما يعوزه من دلالة . فقد روى عن قبائل البوشيمان Bochimans (عشائر بدائية تسكن جنوب أفريقية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية والجسمية التى تصحب كلامهم فتـكمل ناقصه وتوضح مدلولاته[١] . ويقرر علماء الإتنوجرافيا الذين عنوا بدراسة السكان الأصليين بأمريكا وأستراليا وأفريقية أن عقليات هذه الشعوب لا تـكاد تدرك المعانى الـكلية فى كثير من مظاهرها ، وأن هذا القصور العقلى كان له صدى كبير فى لغاتهم ، فلا نـكاد نجد فى كثير منها لفظا يدل على معنى كلى . ففى لغة الهنود الحمر مثلا يوجد لفظ للدلالة على شجرة البلوط الحمراء ، وآخر للدلالة على شجرة البلوط السوداء ... وهكذا ؛ ولـكن لايوجد أى لفظ للدلالة على شجرة البلوط ، ومن باب أولى لايوجد أى لفظ للدلالة على الشجرة على العموم[٢] . وفى لغة الهورونيين Hurons (من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) يوجد لـكل حالة من حالات الفعل المتعدى لفظ خاص بها ، ولـكن لايوجد للفعل نفسه لفظ يدل عليه . فيوجد لفظ للتعبير عن الأكل فى حالة تعلقه بالخبز ؛ ولفظ آخر للتعبير عنه فى حالة تعلقه باللحم ؛ وثالث فى حالة تعلقه بالزبد ؛ ورابع فى حالة تعلقه بالموز ... وهكذا ؛ ولـكن لايوجد فعل ولا مصدر للدلالة على الأكل على العموم أو الأكل فى زمن ما[٣] . ولغة السكان الأصليين لجزيرة تسمانيا Tasmanie (بقرب أستراليا)

---

(١) انظر ريبو : تطور المعانى الـكلية صفحة ٧٨ Ribot: L'Evolution des Idées Générales. (2) Ibid. 110. (3) Ibid. 173-174.

لايوجد بين مفرداتها لفظ يدل على الصفة ؛ فإذا أرادوا وصف شيء لجأوا إلى تشبيهه بآخر مشتمل على الصفة المقصودة ؛ فيقولون مثلا : « فلان كشجرة كذا » إذا أرادوا وصفه بالطول[١] . ومن هذا القبيل الشعوب الصينية : فلغاتها أولية ساذجة فى نواحى الألفاظ والدلالة والقواعد ، تكفى للتعبير عن ضروريات الحياة ، وشئون الصناعة اليدوية ، والأدب السهل ، والتأمل الضحل ؛ ولكنها لاتتسع لعلم ولا لفلسفة ولا لدين بالمعنى الصحيح لهذه الكلمات . حتى أنه لايوجد فيها اسم للإله ؛ ويعبر فيها عن مسائل ما وراء الطبيعة بعبارات ملتوية مبهمة مضطربة الدلالة فى أذهان أهلها أنفسهم . — وفى الشعوب السامية القديمة ، حيث كان يسود التفكير الدينى ، وتفسر شئون الحياة تفسيرا سهلا ، وتنسب جميع الظواهر الطبيعية والإنسانية إلى تدخل الأرواح والآلهة ، ويسيطر على المدارك الكسل والخمول ، وتنفر الأفكار من البحث العلمى ، وترغب عن التأمل الفلسفى ، فى مثل هذه الشعوب نرى اللغات سهلة المأخذ ، ساذجة الدلالة ، ضحلة المعانى ، قصيرة الجمل ، قليلة الروابط : تضع أجزاء الجملة وفقرات العبارة بعضها بجانب بعض ، معتمدة فى بيان وظيفة الألفاظ والجمل وعلاقة كل منها بما عداه على ذكاء المخاطب وسياق الحديث وترتيب المفردات.. وما إلى ذلك ؛ والروابط التى تشتمل عليها قليلة العدد ، غير متنوعة المعنى ، يرجع معظمها إلى علامات تدل على العطف وماشاكله . وعلى عكس ذلك يكون حال اللغة فى الشعوب التى ينشط فيها التفكير ، ويعمق الإدراك ، ويدق البحث ، وتتجه العقول إلى التأمل الفلسفى ، وتميل إلى تفسير ظواهر الكون والمجتمع الإنسانى تفسيراً علمياً يربطها بأسبابها وقوانينها العامة، كبعض الشعوب الآرية. ففى مثل هذه الشعوب تكثر فى اللغات

---

(1) Ibid. 204 et suiv.

الألفاظ الدالة على المعانى الكلية ، والتراكيب المعبرة عن الحقائق العامة ، وتغزر أزمنة الأفعال[1] ، وتطول الجمل وتتعدد أجزاؤها ، وتتنوع الروابط وتختلف دلالاتها ؛ فتتسع للتعبير عن دقيق الوجدان ، وعميق الإدراك ، وحقائق الفلسفة والعلوم .

ويتطور مدلول الكلمة فى لغة ما تبعاً لتطور الشئون الاجتماعية المحيطة بهذا المدلول . فكل تطور من هذا القبيل يتجه بمدلول الكلمة وجهة خاصة ، وينحرف به قليلا أو كثيراً عن أوضاعه الأولى . والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فى اللغة العربية وفى غيرها من اللغات . فكلمة « القطار » مثلا كانت تطلق فى الأصل على عدد من الإبل على نسق واحد تستخدم فى السفر وفى النقل ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعاً لتطور وسائل المواصلات ، فأصبحت تطلق على مجموعة عربات تقطرها قاطرة بخارية . وكلمة « البريد » كانت تطلق على الدابة التى تحمل عليها الرسائل ؛ ثم تغير الآن مدلولها تبعاً لتطور الطرق المستخدمة فى إيصال الرسائل ، فأصبحت تطلق على النظم والوسائل المتخذة لهذه الغاية فى العصر الحاضر . وكلمة الريشة Plume كانت تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ؛ ولكن تغير الآن مدلولها الأصلى تبعاً لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة من الحديد مشكلة فى صورة خاصة . وعبارة « بنى الرجل بامرأته » كانت تستخدم كناية عن دخوله بها ، لأن الشاب البدوى كان إذا تزوج يبنى له ولأهله خباء جديدا ؛ ولكنها فقدت الآن معناها الأصلى لانقراض هذا النظام ،

---

(١) ليس للفعل فى معظم اللغات السامية إلا زمنان : فعل انتهى زمنه (ماض) وفعل لم ينته زمنه (أمر ومضارع للحال أو للاستقبال) ؛ على حين أن له فى اللغات الهندية ـ الأوروبية أزمنة كثيرة لكل منها صيغة خاصة . وقد بلغت هذه الأزمنة فى اللغة الفرنسية أحد عشر زمنا فى الجمل الاخبارية وحدها .

وإن كانت لا تزال تستخدم كناية عن الزفاف . وقد جرت العادة فى بعض العصور بفرنسا أن يقضى المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة مدة عقوبتهم فى أعمال التجديف على ظهر السفن الملكية ؛ ومن ثم جاءت عبارة Envoyer aux galères ، وجاء وصف garlérien ؛ ولكن تغير الآن مدلولها تبعاً لتغير النظم المتصلة بهذه العقوبة ونوعها .

وكثرة استخدام الكلمة فى مدلول ما ، لحدوث ما يدعو إلى ذلك فى شئون الحياة الاجتماعية وما يتصل بها ، يجردها — مع تقادم العهد — من مدلولها الأصلى ، ويقصرها على الناحية التى كثر فيها استخدامها .

فكثرة استخدام العام مثلا فى بعض مايدل عليه ، لسبب اجتماعى ما ، يزيل مع تقادم العهد عموم معناه ، ويقصر مدلوله على الحالات التى شاع فيها استعماله . ولدينا فى اللغة العربية وحدها آلاف من أمثلة هذا النوع . فمن ذلك جميع المفردات التى كانت عامة المدلول ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى معان خاصة تتعلق بالعقائد أو الشعائر أو النظم الدينية : كالصلاة والحج والصوم والمؤمن والكافر والمنافق والركوع والسجود ... وهلم جرا . فالصلاة مثلا معناها فى الأصل الدعاء[1] ثم شاع استعمالها فى الإسلام فى العبادة المعروفة لاشتمالها على مظهر من مظاهر الدعاء ، حتى أصبحت لاتنصرف عند إطلاقها إلى غير هـــذا المعنى . والحج معناه فى الأصل قصد الشىء والاتجاه إليه ، ثم شاع استعماله فى قصد البيت الحرام ، حتى أصبح مدلوله الحقيقى مقصوراً على هذه الشعيرة . . . وقس على ذلك جميع أفراد هذه الطائفة . ومن ذلك أيضاً كلمة « الرث » فقد كانت تطلق على الخسيس من كل شىء ، ثم قصر مدلولها

---

(١) وقد جاء على الأصل قوله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

على الخسيس مما يفرش أو يلبس لكثرة استخدامها فى هاتين الطائفتين ؛ وكلمة « المدام » فهى فى الأصل كل ما سكن ودام ، ثم شاع استعمالها فى الخمر لدوامها فى الدن أو لأنه يغلى عليها حتى تسكن ، فأصبحت لاتنصرف إلى غير هذا المعنى .

وكثرة استخدام الخاص فى معان عامة عن طريق التوسع لسبب اجتماعى ما تزيل مع تقادم العهد خصوص معناه وتكسبه العموم . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات : البأس والورد والرائد والنجعة ... وهلم جرا . فالبأس فى الأصل الحرب ، ثم كثر استخدامه فى كل شدة فاكتسب من هذا الاستخدام عموم معناه؛ وأصل الورد إتيان الماء وحده، ثم صار إتيان كل شيء ورداً لكثرة استخدامه فى هذا المعنى العام ؛ والرائد فى الأصل طالب الكلأ ثم صار طالب كل حاجة رائدا ؛ والنجعة فى الأصل طلب الغيث، ثم عممت فى الاستخدام فأصبح كل طلب انتجاعا . ومن ذلك فى اللغة الفرنسية كلمة salaire : فقد كان معناها فى الأصل ـ كما تدل على ذلك بنيتها ـ ما يصرف للجندى من نقود فى نظير مايحتاج إليه من ملح الطعام ، ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسى معناها الأصلى ؛ وكلمة arriver : فقد كانت تدل فى الأصل ـ كما تشير إلى ذلك بنيتها ـ على الوصول إلى الشاطىء ، ثم شاع استعمالها فى كل وصول فاستقر معناها على هذا الوضع العام .

وكثرة استخدام الكلمة فى معنى مجازى لسبب اجتماعى ما يؤدى غالباً إلى انقراض معناها الحقيقى وحلول هذا المعنى المجازى محله . فمن ذلك مثلا فى اللغة العربية كلمات المجد والأفن والوغى والغفران والعقيقة ... وهلم جرا . فالمجد معناه فى الأصل امتلاء بطن الدابة من العلف ، ثم كثر استخدامه مجازا فى الامتلاء بالكرم حتى

انقرض معناه الأصلى وأصبح حقيقة فى هذا المعنى المجازى ؛ ولهذا السبب نفسه انتقل معنى « الأفن » من قلة لبن الناقة إلى نقص العقل ؛ وانتقل معنى « الوغى » من اختلاط الأصوات فى الحرب إلى الحرب نفسها ؛ ومعنى « الغفر » و « الغفران » من الستر إلى الصفح عن الذنوب ؛ ومعنى « العقيقة » من الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه إلى ما يذبح عند حلق ذلك الشعر .

وكثرة استخدام الكلمة فى العبارات المنفية ينزع عنها معناها الأصلى ويكسبها معنى العموم والإطلاق ، فتصبح أشبه شىء بأداة من أدوات النفى : فمن ذلك فى اللغة العربية كلمات أحد وديار وقط وأبدا . . . وما إليها ؛ وفى اللغة الفرنسية كلمات pas, rien: personne...etc.

واستخدام الكلمة فى فن ما بمعنى خاص يجردها فى هذا الفن من معناها اللغوى ويقصرها على مدلولها الاصطلاحى . ويدخل فى هذا مصطلحات الآداب والفلسفة والقانون والاجتماع والعلوم والفنون . . . وما إلى ذلك . ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة تستعمل فى الشعر بمعنى، وفى الرسائل بمعنى آخر ، وفى السياسة بمعنى ثالث، وفى القانون بمعنى رابع ، وفى الفنون الحربية بمعنى خامس ، وفى الطبيعة بمعنى سادس، وفى الطب بمعنى سابع ... وهلم جرا .

وإلى مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئونها ترجع كذلك أهم الأسباب فى نشأة كلمات لم تكن موجودة فى اللغة من قبل ، وفى هجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضا تاما . فأهم العوامل التى تدعو إلى نشأة كلمات فى اللغة ترجع إلى مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث اجتماعى جديد : نظام حديث فى الشئون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها ؛ نظرية جديدة علمية أو فلسفية ؛ مخترع مادى جديد ... وهلم جرا . وأهم العوامل التى تؤدى إلى انقراض كلمة من الاستعمال ترجع

إلى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية أو إلى عدم استخدامه. ويصدق هذا على الملابس والأثاث وعدد الحرب ووسائل النقل وآلات الصناعة والمقاييس والنقود ومظاهر النشاط والنظم الاجتماعية التى انقرضت أو بطل استخدامها فانقرضت معها المفردات الدالة عليها. فقد انقرض فى العربية كثير من الكلمات الدالة على نظم جاهلية قضى عليها الإسلام، كالمرباع والصرورة والنوافج[١]. وانقرض فى الفرنسية لهذا العامل وما يتصل به كلمات كثيرة منها :

veste, casaquin, cabas, carosse, soupentes, briquet, pacotille, corvette, frégate, brulot, boulet, arpent, écu, liard, toise... etc. [٢].

(٢) تأثر اللغة بلغات أخرى

من المقرر أن أى احتكاك يحدث بين لغتين أو بين لهجتين - أيًا كان سبب هذا الاحتكاك، ومهما كانت درجته، وكيفما كانت نتائجه الأخيرة - يؤدى لامحالة إلى تأثر كل منهما بالأخرى. وغنى عن البيان أنه من المتعذر أن تظل لغة ما بمأمن من الاحتكاك بلغة أخرى. ولذلك كانت كل لغة من لغات العالم عرضة للتطور المطرد عن هذا الطريق.

ولما كان الاحتكاك بين اللغات هو نتيجة لازمة للاحتكاك الاجتماعى بين الشعوب الناطقة بها، لذلك كانت الدعائم التى يعتمد عليها التطور الناشئ عن

(١) المرباع ربع الغنيمة، كان رئيس القوم يأخذه لنفسه فى الجاهلية؛ والصرورة هو الذى يدع النكاح تبتلا، أو الذى يحدث حدثا ويلجأ إلى الحرم؛ والنوافج الإبل تساق فى الصداق.

(2) Dauzat, Philosophie du Langage, p. p. 228 et suiv.

هذا العامل لا تختلف فى شىء عن الدعائم التى يعتمد عليها التطور الناشئ عن العوامل المشار إليها فى الفقرة السابقة . فكلاهما يرجع إلى ظواهر الاجتماع وتدعو إليه مقتضيات العمران ؛ وكلاهما تنعكس فيه ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية العامة ويتمثل فيه بعض مقومات المجتمع واتجاهاته وما يكتنفه من شئون . وكل ماينهما من فرق أن عناصر التطور المشار إليها فى الفقرة السابقة هى عناصر داخلية خالصة؛ على حين أن عناصر هذا التطور ترد إلى اللغة من الخارج .

ومن ثم يختلف ما تأخذه لغة عن أخرى باختلاف العلاقات التى تربط الشعبين وما يتاح لهما من فرص للاحتكاك المادى والثقافى . فكلما قويت العلاقات التى تربط أحدهما بالآخر ، وكثرت فرص احتكاكهما نشطت بينهما حركة التبادل اللغوى . ولذلك تبلغ هذه الحركة أقصى شدتها حينما يسكن الشعبان منطقة واحدة أو منطقتين متجاورتين . ـ فالانجليزية قد أخذت عن النورماندية أكثر مما أخذته عن أية لغة أخرى ؛ لأن الغزاة من النورمانديين قد استقر بهم المقام فى نفس بلاد الانجليز المغلوبين . واللاتينية قد اقتبست من الإغريقية أكثر مما اقتبسته من أية لغة أخرى ؛ وذلك لتجاور منطقتيهما وشدة الامتزاج بين الشعبين الناطقين بهما . ولهذا السبب نفسه بلغت حركة التبادل اللغوى أقصى شدتها بين العربية والفارسية والتركية . وما اقتبسته ألمانية سويسرا من اللغة الفرنسية لايذكر بجانبه ما اقتبسته ألمانية النمسا مثلا ؛ وذلك لأن القسم الألمانى اللغة فى سويسرا متاخم للقسم الفرنسى اللغة ولشدة الاحتكاك بين سكان القسمين ، على حين أن النمسا غير متاخمة لمنطقة فرنسية اللسان . وقد تسرب إلى لغة رومانيا عدد كبير من مفردات الشعبتين الصقلبية والمجرية ، على حين أن أخواتها اللاتينية الأصل (الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية...الخ) لم تكد تتأثر بهذين اللسانين ؛ وذلك لأن رومانيا قد انعزلت

عن أخواتها اللاتينية وأحاط بها من جميع جهاتها أمم صقلبية اللسان أو مجريته .

ومن ثم كذلك نرى أن المفردات التى تقتبسها لغة ما عن غيرها من اللغات يتصل معظمها بأمور قد اختص بها أهل تلك اللغات أو برّزوا فيها أو امتازوا بإنتاجها أو كثرة استخدامها وأخذها منهم أو اعتمد عليهم فيها أهل هذه اللغة . فمعظم ما انتقل إلى العربية من المفردات الفارسية واليونانية يتصل بنواح مادية أو فكرية امتاز بها الفرس واليونان وأخذها عنهم العرب[1] . ويتألف معظم المفردات التى أخذتها الإنجليزية عن النورماندية من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام ؛ وذلك لأن النورمانديين كانوا يفوقون الانجليز كثيراً فى هاتين الناحيتين اللتين تمثل إحداهما مظهراً راقياً من مظاهر التفكير العام ، وتمثل ثانيتهما ناحية من نواحى الترف الاجتماعى ؛ فغزرت مفرداتهما فى لغتهم بينما قل

---

(١) من أشهر المفردات التى انتقلت إلى العربية من الفارسية : الكوز ، الإبريق ، الطست ، الخوان ، الطبق ، والسكرّجه ، السمور — الخز ، الديباج ، السندس — الياقوت ، الفيروزج ، البلور — السميذ ، الكعك ، الفالوذج — الفلفل ، الكرويا ، القرفة ، الزنجبيل ، الخولنجان ، الدارصينى — النرجس ، البنفسج ، السوسن ، الياسمين ، الجلنار — المسك ، العنبر ، الكافور ، الصندل ، القرنفل ... الخ .

ومن أشهر ما أخذته العربية من اليونانية أسماء بعض آلات الرصد والجراحة وبعض مصطلحات الطب والفلسفة والمنطق والعلوم الطبيعية وغيرها ، وأخذت عنها كذلك أسماء بعض المعادن والوظائف والمنشآت المعمارية وغيرها وأدوات البناء والموازين والأمتعة ... الخ : كالقبرس (وهو أجود النحاس) ، والبطريق ، والقيطون (وهو البيت الشتوى)، والقنطرة، والفردوس (البستان) والقراميد (الآجر) ، والقسطاس (الميزان) ، والقنطار ، والبطاقة ، والسجنجل (المرآة) ... وهلم جراً .

انظر فى ذلك فقه اللغة للثعالبي ، الباب التاسع والعشرين ؛ وانظر كذلك المزهر للسيوطى الجزء الأول ، النوع التاسع عشر .

ورودها فى لغة الانجليز القديمة. وإلى اقتباس الانجليزية من النورماندية الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام ، يرجع السبب فيما تمتاز به الانجليزية من أسلوب غريب فى تسمية الحيوانات المأكولة اللحم . فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها فى الإنجليزية اسمان : اسم سكسونى الأصل يطلق على الحيوان مادام حيًّا لا علاقة له بشئون المائدة sheep. calf, ox, pig واسم آخر مقتبس من النورماندية يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للغذاء mutton, veal, beef, pork. وقد انتقل إلى اليونانية ، ومنها إلى اللاتينية ، كثير من الكلمات الفينيقية المتصلة بشئون الملاحة والبحرية ؛ وذلك لأن الفينيقيين قد سبقوا غيرهم من الشعوب فى هذا المضمار . وانتقل إلى اللاتينية كثير من الكلمات الإغريقية المتعلقة بالمصطلحات الفلسفية والدينية ؛ وذلك لبراعة الإغريق فى ميدان الفلسفة ولأن الدين المسيحى قد انتشر بفضلهم فى شرق الامبراطورية الرومانية ووسطها . وقد أخذت اللغات الجرمانية عن اللاتينية كثيراً من المفردات المتصلة بالقضاء والتشريع ونظم الاجتماع والسياسة ... وما إليها ؛ وذلك لأن الرومان كانوا مبرزين فى جميع هذه الشئون[1] . ولهذا السبب نفسه انتقل إلى الفرنسية كثير من الكلمات الجرمانية المتصلة بشئون الحرب ومنها كلمة الحرب نفسها la guerre[2] ، وكثير من الكلمات الإيطالية المتصلة بالموسيقى وآلاتها والفنون الجميلة ؛ وانتقل إلى معظم اللغات الأوروبية وغيرها المفردات الانجليزية المتصلة بالألعاب الرياضية ، والمفردات الفرنسية المتعلقة بالأزياء وألوان الطعام .

---

(١) V. Dauzat: Philosodhie du Langage, 105.

(٢) فهى مأخوذة من الكلمة الجرمانية القديمة Werra .

ومن أجل ذلك تنتقل مع المنتجات الزراعية والصناعية أسماؤها فى لغـة المناطق التى ظهرت فيهـا لأول مرة أو اشتهرت بإنتاجها أو تصدر منها فى الغالب ، فتنتشر عن هذا الطريق فى لغات البلاد الأخرى . فكلمة «الشاى» مثلا قد انتقلت إلى معظم لغات العالم من لغة جزر « ماليزيا » Malaisie التى كانت المصدر الأول لهذه المـادة (« شاى » فى العربية ، « thé » فى الفرنسية ، « tea » فى الإنجليزية . . . الخ) . وكذلك كلمة الطباق ؛ فقد انتقلت إلى معظم اللغات الإنسانية من لغة السكان الأصليين لأمريكا حيث كشفت هـذه المادة لأول مرة (« طباق » فى العربية ، « tabac » فى الفرنسية ، « tobacoe » فى الإنجليزية ... الخ) . وعن هذا الطريق انتقل إلى اللغات الأوروبية كثير من الكلمات العربية الدالة على منتجات زراعية أو صناعية : كالليمون، والموصلى (وهو نسيج خاص ينسب إلى الموصـل) ، والزعفران ، والشراب ، والسكر ، والـكافور ، والقنوة (عسل قصب السكر المجمد) ، والقهوة ، والقطن ، والقرمزى ، والـكمون ، والدمشق (نسيج ينسب إلى دمشق) :

فى الإنجليزية : **lemon, muslin, saffron, sherbet, syrup, sugar, camphor candy, coffee, cotton, crimson, cumin, damask .**

وفى الفرنسية: **limon, mousseline, safran, sorbet, sirop, sucre, camphre, candi, café, coton, cramoisi, cumin, damas .**

وأهم ناحية يظهر فيها هذا التأثر هى الناحية المتعلقة بالمفردات . فنى هذه الناحية على الأخص تنشط حركة التبادل بين اللغات ، ويكثر اقتباسها بعضها من بعض. وقد تذهب بعض اللغات بعيداً فى هذا السبيل ، فتقتبس معظم مفرداتها أو قسما كبيراً منها عن غيرها ؛ كما فعلت التركية مع الفارسية والعربية ، والسريانية مع اليونانية ،

والفارسية مع العربية . وأما القواعد وأساليب الصوت فلا تنتقل فى الغالب من لغة إلى أخرى إلا بعدصراع طويل بين اللغتين ، ويكون انتقالها إيذاناً بقرب زوال اللغة التى انتقلت إليها واندماجها فى اللغة التى انتقلت منهـا ، وإيذاناً فى الوقت نفسه بأن حضارة الشعب الذى انتقلت إليه هذه الأمور قد أخذت تتلاشى فى حضارة الشعب الذى انتقلت منه ، كما سيأتى بيان ذلك فى صراع اللغات[1] .

ولهذا تخضع فى الغالب الكلمات المقتبسة للأساليب الصوتية فى اللغة التى اقتبستها ولمقوّمات هذه اللغة ؛ فينالها كثير من التحريف فى أصواتها وطريقة نطقها ، وتبعد فى جميع هذه النواحى عن صورتها القديمة . فالكلمات التى أخذتها العربية مثلا عن الفارسية أو اليونانية قد صبغ معظمها بصبغة اللسان العربى ، حتى بعد كثيراً عن أصله . ومن ثم نرى أن الكلمة الواحدة قد تنتقل من لغة إلى عدة لغات ، فتتشكل فى كل لغة منها بالشكل الذى يتفق مع أساليبها الصوتية ومناهج نطقها ، حتى لتبدو فى كل لغة منهـا غريبة عن نظائرها فى اللغات الأخرى . فالكلمات العربية مثلا التى انتقلت إلى اللغات الأوروبية قد تمثلت فى كل لغة منهـا بصورة تختلف اختلافا غير يسير عن صورتها فى غيرها .

وكثيراً ما ينال معنى الكلمة نفسه تغيير أو تحريف عند انتقالها من لغة إلى لغة أو من لهجة إلى أخرى وفق ما تقتضيه الظروف الاجتماعية المحيطة بهـذا الانتقال : فقد يخصص معناها العام ويقصر على بعض ما يدل عليه ؛ وقد يعمم مدلولها الخاص؛ وقد تستعمل فى غير ما وضعت له لعلاقة ما بين المعنيين ؛ وقد تنحط إلى درجة وضيعة

---

(١) انظر الفصل الثانى من هذا الكتاب .

فى الاستعمال فتصبح من لغش الكلام وهجره ؛ وقد تسمو إلى منزلة راقية فتعتبر من نبيل القول ومصطفاه ... وهلم جرا[1] .

* * *

هذا ، وللعامل الذى نحن بصدده آثار أخرى عميقة سنعرض لها بتفصيل عند كلامنا على صراع اللغات فى الفصل الثانى من هذا الكتاب[2] .

(٣) العوامل الأدبية

تشمل هـذه الطائفة جميع ما تجود به القرائح من وسائل ومنتجات تؤدى إلى حفظ اللغة ، وتعليمها ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة نقصها ، وتهذيبها من نواحى المفردات والقواعد والأساليب ، وتسجيل آثارها ، واستخدامها فى مختلف فروع الترجمة والتأليف ... وهلم جرا .

ولما كانت هذه المنتجات الأدبية تساير حضارة الأمة ، وترسم نهضة المجتمع ، وتتأثر بجميع ما يطرأ على الحياة الاجتماعية من تطور ، وتترجم عن عقلية الجماعة ونظمها ومطامحها ، ونظرها إلى الحياة وفهمها لحقائق الكون ، ومبلغ تقدمها فى ميادين العلوم والفنون ، وما وصلت إليه فى سلم الارتقاء ، لذلك كانت الدعائم التى يعتمد عليها التطور اللغوى الناشئ عن هذه العوامل الأدبية لا تختلف فى شىء عن

---

(١) قد ضرب العلامة دوزا Dauzat فى كتابه فلسفة اللغة Philosophie du Langage أمثلة طريفة لهذه الظواهر (انظر صفحتى ١١٠ ، ١١١ من كتابه هذا) .

(٢) سنعرض لبعضها كذلك عند كلامنا على العوامل الأدبية فى الفقرة التالية (انظر الطائفتين الثانية والرابعة من هذه الفقرة) .

الدعائم التي يعتمد عليها التطور الناشئ عن العوامل المشار إليها في الفقرتين السابقتين. فكلاهما يرجع إلى ظواهر الاجتماع ، وتدعو إليه مقتضيات العمران؛ وكلاهما تنعكس فيه ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية العامة ، ويتمثل فيه بعض مقومات المجتمع واتجاهاته وما يكتنفه من شئون .

وكل ما بينهما من فرق يرجع إلى أمور ظاهرية أكثر منها حقيقية ، ولا يكاد يعدو الناحيتين الآتيتين :

١ — أن آثار الأمور الأدبية تتجه أولا وبالذات إلى لغة الكتابة ؛ بينما تتجه الطوائف السابقة في صورة مباشرة إلى لغة المحادثة .

وليس هذا إلا مجرد فارق سطحي ؛ لأن كل تطور يصيب إحدى اللغتين (لغة الكتابة أو لغة المحادثة) يتردد صداه في اللغة الأخرى . فآثار العوامل الأدبية التي نحن بصددها ـ وإن اتجهت أوَّلاً وبالذات إلى لغة الكتابة ـ لا تلبث أن تظهر في لغة المحادثة ؛ وآثار العوامل التي تكلمنا عنها في الفقرتين السابقتين ـ وإن اتجهت في صورة مباشرة إلى لغة المحادثة ـ تمتد لا محالة إلى لغة الكتابة .

٢ — أن العوامل الأدبية تبدو في صورة أمور مقصودة تسيرها الإرادة الإنسانية ؛ على حين أن الطوائف التي تكلمنا عنها في الفقرتين السابقتين تتمثل مظاهرها في أمور غير مقصودة ، تحدث من تلقاء نفسها ، وتبدو آثارها في صورة جبرية لا اختيار للإنسان فيها ، ولا يد له على وقفها أو تغيير ما تؤدي إليه .

وهذا الفارق كذلك ظاهري أكثر منه حقيقي ؛ لأن هذه الطوائف من العوامل ـ على ما يبدو في بعضها من قصد واختيار ، وفي بعضها الآخر من تلقائية وإجبار ـ

تسير جميعاً ، فى حقيقة الأمر ، وفقاً للقوانين التى تسير عليهـا الحياة الاجتماعية ، وتتجه جميعاً فى السبيل التى يسلـكها المجتمع فى تطوره العام .

هذا ، وللعوامل الأدبية مظاهر كثيرة من أهمها : الرسم ؛ والتجديد فى اللغة ؛ والبحوث اللغوية ؛ وحركة التأليف والترجمة . وسنتكلم على كل واحد من هـذه الأمور الأربعة على حدة :

أولا — الرسم :

لم يتح الرسم إلا لعدد قليل من اللغات الإنسانية . أما معظمها فقد اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوى . فالشرط الأساسى لحياة اللغة هو التكلم بهـا لا رسمها : فـكثيراً ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريرى ؛ ولـكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتى .

وعلى الرغم من ذلك فللرسم فى حياة اللغة ونهضتها آثار تجل عن الحصر . فبفضله تضبط اللغة ، وتدون آثارها ، ويسجل مايصل إليه الذهن الإنسانى ، وتنتشر المعارف ، وتنتقل الحقائق فى الزمان والمـكان . وهو قوام اللغات الفصحى ولغات الـكتابة ودعامة بقائها . وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية والمصرية القديمة والإغريقية واللاتينية والقوطية ... ؛ فلولا ماوصلنا من الآثار المـكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا منها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوى .

وترجع أساليب الرسم التى استخدمت فى مختلف اللغات إلى أسلوبين اثنين :

(أحدهما) أسلوب الرسم المعنوى **Idéographie, écriture idéographique**

وهو الذى يضع لكل معنى صورة خطية خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب فى لغات كثيرة منها الصينية[1] والمصرية القديمة[2] . ولا نعلم على وجه اليقين أول أمة استخدمته ؛ ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الإنسانى .

وترجع الصور الخطية التى تستخدم فى هذا الأسلوب إلى نوعين . فأحيانا تكون صوراً حقيقية للأشياء التى يراد التعبير عنها أو لأجزاء من هذه الأشياء ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفى إلى الشمس بدائرة فى وسطها نقطة ، وإلى القمر بقوس فى وسطه نتوء ، وإلى الزنبق بثلاث فروع من شجرته فى طرف كل منها ثلاث زنبقات ،وإلى الصقر بصورته واقفا ... وهلم جرا . وأحيانا تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعانى Symbolisme ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفى إلى الشهر بصورة

(١) يرتكز الرسم الصينى على ٢١٤ رمزا أصليا (تسمى بالمفاتيح clefs أو الأصول Radicaux) ، يعبر كل رمز منها عن معنى عام ، ويعين المقصود منه عدد الخطوط التى تضاف إلى هذا الرمز ونوعها .

(٢) يسمى الرسم المصرى القديم بالهيروغليفى Hièrogliphe . وقد اجتاز هذا الرسم أربع مراحل . فقد كان فى المبدأ تصويراً للأشياء ؛ فيعبر عن الشمس مثلا بدائرة فى وسطها نقطة وعن القمر بقوس فى وسطه نتوء ... وهلم جرا . ثم دخل فيه بعد ذلك طريقة الرموز البسيطة والمركبة ؛ فيعبر مثلا عن اليوم بصورة الشمس (دائرة فى وسطها نقطة) ، وعن الشهر بصورة نجمة تعلوها صورة قمر مستعرضة (قوس فى وسطة نتوء) . وفى المرحلة الثالثة دخلت فيه الطريقة الصوتية المقطعية ؛ فاستخدمت مثلا الصورة التى كان يعبر بها قديما عن الفم (وهى صورة الشفتين) للتعبير عن مقطع « را » . وفى المرحلة الأخيرة دخلت فيه الطريقة الهجائية ؛ فاستخدمت مثلا الصورة السابقة لا للتعبير عن مقطع « را » بل للتعبير عن صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بحركة كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية . ــ والمظهران الأولان فقط (الصورى والرمزى) هما اللذان يعدان من النوع الذى نحن بصدد الكلام عنه . أما المظهران الأخيران (المقطعى والهجائى) فمن النوع الثانى الذى سنتكلم عنه وهو الرسم الصوتى .

هلال فى وسطه نجمة ، وإلى اليوم بدائرة فى وسطها نقطة ؛ وكما يشير الرسم الصينى لمعنى « الإنسانية » بخطين يتكون منهما شكل يشبه رقم ٨ .

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة . فهو أسلوب بطىء يقتضى الكاتب إسرافا كبيراً فى الوقت والمجهود . ولكثرة صوره ورموزه تبعاً لكثرة المعانى والأشياء ، يقتضى تعلمه وتعليمه جهوداً شاقة وزمنا طويلا . ولذلك يقضى كثير من الصينيين زهرة شبابهم فى المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصينى . وهو لايقوى على تأدية وظيفته إلا فى صورة ناقصة مبتورة ؛ إذ من المستحيل ، مهما كثرت صوره وتعددت رموزه ، أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الإنسانى من معان وأفكار وجميع ماينطق به اللسان من ألفاظ وعبارات . هـذا إلى أنه بمقتضاه لايوجد للمعنى الواحد أكثر من صورة واحدة ، مع أنه فى معظم اللغات الإنسانية ، كثيراً ما يوجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة . فاستخدامه فى حالات كهذه يوقع فى اللبس ويؤدى إلى الاضطراب .

(وثانيهما) أسلوب الرسم الصوتى Ecriture phonétique, ou Phonétisme الذى يضع لكل صوت صورة خاصة . وقد استخدم هـذا الأسلوب من الرسم فى كثير من اللغات القديمة ، ويستخدم الآن فى معظم الشعوب المتمدينة .

وترجع الصور الخطية التى استخدمت فى هـذا الرسم إلى طائفتين : إحداهما الصور المقطعية Syllabique وهى التى ترمز إلى مقاطع كاملة ، كما يرمز فى الهيروغليفى بشكل الشفتين إلى مقطع « را » وفى المسمارى بصورة اليد إلى مقطع « سو » ؛ والأخرى الصور الهجائية Alphabétique وهى التى ترمز إلى أصوات ساكنة كما يرمز فى الرسم العربى بهذا الحرف : « ل » ، إلى صوت اللام مجردة من جميع الحركات .

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه (المقطعى والهجائى) منــذ أ كثر من ثلاثين قرنا قبل الميلاد . فمن بين صور الخط الهيروغليفى ما يرمز إلى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلا التى تعبر عن مقطع « را ») ، بل من بينها ما يرمز إلى مجرد أصوات ساكنة (صورة الشفتين مثلا التى أصبحت ترمز فيما بعد إلى صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بأية حركة ، كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربيــة) . غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هــذا الأسلوب وحده ، بل مزجوه بالأسلوب الأول . فالرسم الهيروغليفى خليط من الرسم الصوتى والرسم المعنوى ؛ يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية ، صوراً حقيقيــة ورمزية[1] .

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائى وحده . وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجارى وكثرة تنقلهم وتمدد علاقاتهم بمختلف الشعوب فقد كانت هذه الشئون تقتضيهم فى جميع أعمالهم السرعة فى الحركة ، والاقتصاد فى المجهود ، وتحرى وجوه الدقة . والأسلوب الهجائى هو أسرع أساليب الرسم ، وأيسرها ، وأدناها إلى الـكمال . وليس من شك فى أنهم قد حاكوا فى أسلوبهم هذا ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفى من صور هجائية . على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط نحو ثلاثة عشر حرفا من حروفهم .

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية فى معظم أنحاء العالم القديم واستخدمها كثير من شعوبه ؛ ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التى استخدمت فيما بعد فى مختلف اللغات الإنسانية .

---

(١) انظر صفحتى ٣٠ ، ٣١ والتعليق الثانى بصفحة ٣٠ .

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ، ومن هذه اشتق الرسم العبرى الحديث (الحروف العبرية المربعة l' hébreu carré) الذى استخدم بعد رجوع بنى إسرائيل من نفى بابل ، وظل مستخدماً إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالعبرية الحديثة (الحروف العبرية المربعة) : أحدهما الخط التدمرى[١] (أو البالميرينى Palmyrénien[٢]) ؛ والآخر الخط النبطى Nabatéen . ومن التدمرى اشتقت الحروف السريانية التى أخذت منها الخطوط المغولية والمنشورية . ومن الخط النبطى والخط السريانى اشتقت حروف الهجاء العربية .

ومن الرسم الفينيقى أخذ كذلك الرسم الآرامى . بل إن الرسم الآرامى فى أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقى . وعن الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكتريانية Indo - Bactrien[٣] التى كانت مستخدمة فى شمال الهند ؛ ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن فى مختلف لغات الهند وسيام Siam وكامبدج Cambodge (بالهند الصينية) ومالزيا Malaisie .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الإغريقى ؛ ومن الرسم الإغريقى

(١) نسبة إلى تدمر وهى مملكة قديمة كانت تشمل جزءا كبيراً من سوريا الحالية . ومعنى تدمر فى العبرية بلاد النخيل .

(٢) نسبة إلى بالميرن Palmyrène وهو اسم فرنسى لبلاد تدمر . ومعناه فى الفرنسية هو نفس معنى تدمر فى العبرية أى بلاد النخيل .

(٣) نسبة إلى باكتريان Bactriane وهى منطقة قديمة كان يسكنها الإيرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس .

أخذت الحروف اللاتينية ؛ ومن الرسمين اللاتيني والإغريقي تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة في مختلف اللغات الأوروبية في العصر الحاضر .

* * *

والأصل في الرسم الهجائي أن يكون معبراً تعبيراً دقيقاً عن أصوات الكلمة بدون زيادة ولا نقص ولا خلل في الترتيب ؛ فيرسم في موضع كل صوت من أصواتها الحرف الذي يرمز إليه ، ولا يوضع فيها حرف زائد لا يكون له مقابل صوتي . وقد حوفظ على هذا الأصل إلى حد كبير في بعض اللغات الإنسانية ، وخاصة القديم منها . فرسم الكلمة في السنسكريتية لا يكاد يختلف في شيء عن صوتها [١] . ولكن معظم أنواع الرسم، وخاصة الحديث منها لا تتوافر فيه هذه المطابقة . فكثيراً ما يرسم في الكلمة حرف زائد أو حروف زائدة ليس لها مقابل صوتي في النطق (مثلا: «مائة» ، في العربية ؛ « loup » في الفرنسية ؛ « thamb » في الإنجليزية) . وكثيراً ما تشتمل الكلمة على أصوات لا تمثلها حروف في الرسم (مثلا: «هذا» في العربية ؛ « picture » في الإنجليزية) . وكثيراً ما يرسم في الكلمة حرف أو أكثر للتعبير عن صوت غير الصوت الذي وضع له (« dompter » في الفرنسية ؛ « enough » ، « ocean » ، «of» في الإنجليزية) . وكثيراً ما ينطق بالحرف الواحد أو بالمقطع الواحد بصور صوتية مختلفة تبعاً لاختلاف الكلمات ، أو اختلاف أزمنتها ، أو اختلاف موقعه فيها ، أو

---

(١) وقد ساعد على ذلك أن الرسم السنسكريتي لم يكد يغادر صوتا من أصوات اللغة إلا وضع له حرفا يرمز إليه . ولذلك كثرت حروف الهجاء في هذا الرسم ، وقويت على التعبير عن مختلف الأصوات . فقد بلغت ٤٦ حرفا منها ٣٣ حرفا ساكناً و ١٣ حرفاً ليناً ، هذا إلى ثلاث علامات للشكل :

اختلاف مايسبقه أو يلحقه من حروف . . . ؛ فيرقق فى بعض الـكلمات ويفخم فى بعضها الآخر ، أو يمد فى بعضها ويقصر فى بعضها الآخر ، أو يضغط عليه فى بعضها ويرسل فى بعضها الآخر ... وهلم جراً . (اللام فى « والله » واللام فى « بالله » ; «Law, low»;
« I get a piece of lead, I lead some men » ; « I will read this book, I have just read this book » ; « The lines of demarkation that separate scienaces ..., This book contains separate sciencсs » ; « I object against this way, The object of our book is ... »).

وكثيراً ما تختلف الحروف فى كلمتين ويتحد النطق بهما a piece of bread, in time of peace.

ويرجع السبب فى هذه الظواهر وما إليها إلى عوامل كثيرة من أهمها عاملان :

(أحدهما) أن حروف الهجاء فى معظم أنواع الرسم لا تمثل جميع أصوات اللغة التى تـكتب بهـا . فقد جرت العادة مثلا فى معظم أنواع الرسم ألا يوضع لـكل صوت عام أكثر من حرف هجائى واحد ؛ مع أن الصوت العام كثيراً ما يندرج تحته أصـوات مختلفة فى مخرجها ونبرتها وقوتها ومدة النطق بها وما إلى ذلك . فالصوت العام للام مثلا ليس له فى معظم أنواع الرسم الحديثة إلا حرف واحـد (ل L . . .) ؛ مع أن هـذا الصوت يختلف نطقه باختلاف الـكلمات والمواقع . فأحيانا ينطق به مرققاً (بالله ، low, hole) ، وأحياناً مفخماً (والله، law) ؛ وتارة ينطق به مضغوطا عليه (أقسم بالله) وأخرى ينطق به مرسلا (يستعين بالله) . . . وهلم جراً ؛ ورسمه واحد فى جميع هذه الحالات . والصوت العام للألف اللينة ليس له فى العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه أحيانا ينطق به مستقيما ، وأحيانا ينطق به ممالا . والصوت العام للجيم ليس له فى العربية إلا حرف واحد ؛ مع أنه فى بعض اللهجات ينطق به مجرداً من التمطيش، وفى بعضها ينطق به ممطشاً كل التمطش ، وفى بعضها ينطق به بين هذا وذاك .

(وثانيهما) أن أصـوات اللغة فى تطور مطرد وتغير دائم . فالأصوات التى تتألف منها كلمة ما لا تجمد على حالتها القديمة ، بل تتغير بتغير الأزمنة والمناطق ، وتتأثر بطائفة كبيرة من العوامل الطبيعية والاجتماعية واللغوية : فأحيانا يسقط منها بعض أصواتها القديمة ، وأحيانا يضاف إليها أصوات جديدة ، وتاوة يستبدل ببعض أصواتها أصوات أخرى ، وتارة تحرف أصواتها عن مواضعها فيختل ترتيبها القديم.. ؛ وقد ينالها أكثر من تغير واحد من هـذه التغيرات . على حين أن الرسم لا يساير النطق فى هذا التطور ، بل يميل غالبا إلى الجمود على حالته القديمة أو ما يقرب منها ؛ فلا يدون الـكلمة على الصورة التى انتهت إليها أصواتها ، بل على الصورة التى كانت عليها من قبل . وهذا هو منشأ الخلاف فى معظم اللغات الأوروبية الحديثة بين النطق الحالى لـكثير من الـكلمات وصورتها فى الرسم . فمعظم وجوه هذا الخلاف ترجع إلى جمود الرسم وتمثيله لصور صوتية قديمة نالها مع الزمن كثير من التغيير فى ألسنة الناطقين باللغة .

* * *

ومع ما للرسم من الفوائد الجليلة التى أشرنا إليها فى صدر هذه الفقرة[1] ، فإن عدم مطابقته للنطق يجعل له بعض آثار ضارة . فهو يعرض الناس للخطأ فى رسم الـكلمات . ويجعل تعلم القراءة والـكتابة لأهل اللغـة أنفسهم من الأمور الشاقة المرهقة ، ويطيل زمن الدراسة ، فيسبب إسرافا كبيرا فى الوقت والمجهود . وما يلاقيه أهل اللغة من صعوبات بهذا الصدد يلاقى أضعافه الأجانب الراغبون فى تعلمها . ومن الواضح أن هذا يعوق انتشارها فى الخارج ، ويضيق سبل الانتفاع بآدابها وعلومها ،

---

(١) انظر ص ٢٩ .

فيصعب التفاهم بين الشعوب وتضعف بينها حركة التبادل العلمى والثقافى . هـذا إلى أن تمثيل الرسم لصور صـوتية قديمة يعمل على رجع اللغة إلى الوراء وردها إلى أشكالها العتيقة . فـكثيراً ما يتأثر الفرد فى نطقه للـكلمة بشكلها الـكتابى ، فلا يلفظها بالصورة التى انتهى إليها تطورها الصوتى ، بل ينطق بها وفق رسمها، فتنحرف إلى الوضع الذى كانت عليه فى العهود القديمة . وليس الأجانب وحدهم هم المعرضين لهذا الخطر ؛ بل إنه كثيراً ما يصيب أهل اللغة أنفسهم . وإليك مثلا الحرف المشدد فى اللغة الفرنسية فى مثل Savamment, évidamment... الخ . فقد كان ينطق به وفق رسمه فى العصور الأولى لهذه اللغة . ثم انقرضت هذه الطريقة منذ عهد بعيد ؛ وأخذ الفرنسيون ينطقون به مخففاً كما ينطقون بحرف واحد (Savaman évidaman) .ولـكن منذ أمد قريب أخذت عادة النطق به مشدداً تظهر فى ألسنة كثير منهم تحت تأثير صورته الخطية. فمن جراء الرسم نكصت اللغة على عقبيها فى هذه الناحية عدة قرون إلى الوراء[1] .

ومن أجل ذلك كان العمل على إصلاح الرسم وتضييق مسافة الخلف بينه وبين النطق موضع عناية كثير من الأمم فى مختلف العصور . ـ فقد ظهر فى هذا السبيل بعض حركات إصلاحية عند اليونان والرومان فى العصور السابقة للميلاد ـ . وفى أواخر القرن التاسع عشر عالج الألمان أساليب رسمهم القديم وأصلحوا كثيراً من نواحيه . ـ ومثل هذا حدث منذ عهد قريب فى مملـكة النرويج ، ثم فى جمهورية البرازيل ـ . وقد بدت بهذا الصدد محاولات إصلاحية كثيرة فى البلاد الواطئة

---

(١) ومن ذلك أيضا الحروف الساكنة (غير اللينة) فى آخر الـكلمات ، فقد حذفت فى النطق الفرنسى فى معظم المفردات منذ عهد بعيد . ولـكن أخذ كثير من الفرنسيين فى العهد الحاضر ينطقون ببعضها تحت تأثير صورتها الخطية : «but» (نطقها الصحيح bu) قد تحولت الآن فى ألسنة كثير من الفرنسيين إلى «bute» .

(هولاندا) وانجلترا والولايات المتحدة ؛ ولـكن معظم هذه المحاولات لم يؤد إلى نتائج ذات بال . — وأدخلت الأكاديمية الفرنسية ، يشد أزرها ويعاونها طائفة من ساسة فرنسا وعلمائها ، إصلاحات كثيرة على الرسم الفرنسي . وقد جانبت فى إصلاحاتها هذه مناهج الطفرة واتبعت سبل التدرج البطىء . فـكانت تدخل فى كل طبعة جديدة لمعجمها ، بجانب التنقيحات اللغوية والعلمية ، طائفة من الإصلاحات الإملائية . وقد أقرت عام ١٩٠٦ مجموعة هامة من القواعد الجديدة فى الرسم الفرنسي . هذا إلى إصلاحات العلامة جريار Gréard التى تناولت كثيراً من نواحى الرسم ، وأقرتها الأكاديمية الفرنسية . وكانت كل مجموعة من هذه الإصلاحات تلقى مقاومة عنيفة من جانب غلاة المحافظين . وعلى الرغم من ذلك ، عم الأخذ بها ، وكان لها أكبر فضل فى تيسير الرسم الفرنسي وتضييق مدى الخلاف بينه وبين النطق الحديث .

والرسم العربى نفسه قد تناولته يد الإصلاح أكثر من مرة من قبل الإسلام ومن بعده . ومع ذلك لا يزال عدد كبير من المفـكرين فى عصرنا الحاضر يأخذون عليه كثيراً من وجوه النقص والإبهام ، كاضطرابه فى رسم الهمزة والألف اللينة ، وإغفاله الرمز إلى حركات الحروف ، واختلاف صور حروفه باختلاف مواضعها فى الـكلمة ، واشتماله على عدة مجموعات تتحد حروف كل مجموعة منها فى الصورة ولا يتميز بعضها عن بعض إلا بالإهمال والإعجام وعدد النقط (ب ت ث ، ج ح خ ، د ذ ...الخ) ويدعون إلى إصلاحه من هذه النواحى وغيرها .

ولـكن الرسم العربى ليس فى حاجة إلى كثير من الإصلاح ، فهو من أكثر أنواع الرسم سهولة ودقة وضبطا فى القواعد ومطابقة للنطق[1] .

---

(١) انظر ما كتبناه فى عيوب الرسم العربى ووجوه إصلاحه فى مجلة الرسالة (عدد ٦ — ١١ — ٤٤) وفى مجلة الشرق الجديد (أعداد أبريل ومايو ويونية سنة ١٩٤٥) وفى كتابنا « فقه اللغة » (الطبعة الثانية ، صفحات ١٣٤ — ١٣٨) .

هذا ، وعلى الرغم من المساوئ السابق ذكرها ، فإن لجمود الرسم على حالته القديمة أو ما يقرب منها بعض فوائد جديرة بالتنويه . فهو يوحّد شكل الكتابة فى مختلف العصور ، ويسهل تناقل اللغة ، ويمكن الناس فى كل عصر من الانتفاع بمؤلفات سلفهم وآثارهم . فلو كان الرسم يتغير تبعاً لتغير أصوات الكلمات لأصبحت كتابة كل جيل غريبة على الأجيال اللاحقة له ، ولاحتاج الناس فى كل عصر إلى تعلم طرق النطق والإلمام بحالة اللغة فى العصور السابقة لهم حتى يستطيعوا الانتفاع بمخلفات آبائهم . هذا إلى أن جمود الرسم على حالته القديمة يفيد الباحث فى اللغات أكبر فائدة . فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات ، ويقفه على ما كانت عليه أصواتها فى أقدم عصور اللغة : فالرسم للألفاظ أشبه شىء من هذه الناحية بالمتحف للآثار .

* * *

وقد كان للرسم فى اللغات الأوروبية فضل كبير فى تيسير النطق بكثير من الأسماء المتداولة المركبة من عدة كلمات . فقد جرت العادة أن يكتفى فى التعبير عن هذه الأسماء بذكر الحروف الأولى للكلمات التى تتألف منها «T. S. F. = tébégraphe sans fil» «M. A. = Master of arts» . وشاع هذا الاستعمال فى أسماء المخترعات والشركات والأحزاب والفرق الحربية والنظريات والشهادات العلمية . . . وما إلى ذلك . وقد أنزلت هذه الرموز منزلة الكلمات وأخذ الناس يصرفونها وينسبون إليها ويشتقون منها أفعالا وصفات . وللاقتصار عليها وكثرة استخدامها فى الحديث والكتابة تنوسى أصلها عند عامة الناس ، وأصبح كثير منهم يعتقد أنها كلمات كاملة (النازى ، الناف ، الأنزاك ... الخ) .

* * *

وللرسم أثر كبير فى تحريف النطق بالكلمات التى يقتبسها الكتاب والصحفيون عن اللغات الأجنبية . وذلك أن اختلاف اللغات فى الأصوات ، وحروف الهجاء والنطق بها ، وأساليب الرسم ... ، كل ذلك يجعل من المتعذر أن ترسم كلمة أجنبية فى صورة تمثل نطقها الصحيح فى اللغة التى اقتبست منها . فينشأ من جراء ذلك أن ينطق بها معظم الناس بالشكل الذى يتفق مع رسمها فى لغتهم ، ويشيع هذا الأسلوب من النطق ، فتصبح الكلمة غريبة كل الغرابة أو بعض الغرابة عن الأصل الذى أخذت عنه . وليس هذا مقصوراً على اللغات المختلفة فى حروف هجائها كالعربية واللغات الأوروبية ، بل يصدق كذلك على اللغات المتفقة فى حروف الهجاء كالفرنسية والإنجليزية . فجميع الكلمات الإنجليزية التى انتشرت فى الفرنسية عن طريق رسمها فى الصحف والمؤلفات ينطق بها الفرنسيون فى صورة لا تتفق مع أصلها الإنجليزى (boy-scout; foot-ball; rugby; sterling; standard of living...) حتى أن كثيراً منها لا يكاد يتبينها الإنجليزى إذا سمعها من فرنسى .

ثانياً — حركة التجديد فى اللغة :

تبدو حركة التجديد فى مظاهر كثيرة من أكبرها أثراً فى التطور اللغوى الأمور الآتية :

١ — تأثر الأدباء والكتاب بأساليب اللغات الأجنبية ، واقتباسهم أو ترجمتهم لمفرداتها ومصطلحاتها ، وانتفاعهم بأفكار أهلها وإنتاجهم الأدبى والعلمى . فلا يخفى ما لهذا كله من أثر بليغ فى نهضة لغة الكتابة وتهذيبها واتساع نطاقها وزيادة ثروتها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر . فأكبر

قسط من الفضل فى نهضة اللغة العربية فى عصر بنى العباس يرجع إلى انتفاع الأدباء والعلماء باللغتين الفارسية والإغريقية . فقد أخذوا فى ذلك العصر يترجمون آثارهما ، ويعقبون عليها بالشرح والتعليق ، ويستغلونها فى بحوثهم ، ويحاكون أساليبهما ، ويقتبسون منهما عـدداً كبيراً من المفردات العلمية وغيرها ، ويمزجونها بمفردات لغتهم عن طريق تعريبها تارة وعن طريق ترجمتها تارة أخرى ، فاتسع بذلك متن اللغة العربية، وازدادت مرونة وقدرة على تدوين الآداب والعلوم . ويرجع كذلك أكبر قسط من الفضل فى نهضة اللغة العربية بمصر فى العصر الحاضر إلى انتفاع الصحفيين والأدباء والعلمــاء باللغات الأوروبية الحديثة ، ومحاكاتهم لأساليبها ، وتعريبهم أو ترجمتهم لألفاظها ومصطلحاتها ، واستغلالهم فى مؤلفاتهم ومترجماتهم لمنتجات أهلها فى شتى ميادين الحركة الفكرية . ولغة الكتابة بفرنسا فى العصر الحاضر مدينة بأهم نواحى رقيهــا إلى تأثرها باللغتين اللاتينية والإغريقية من جهة وباللغات الأوروبية الحديثة من جهة أخرى . فمنذ « عصر النهضة » Renaissance لم ينفك أدباء فرنسا وعلماؤها دائبين على اقتباس المفردات اللاتينية واليونانية القديمة ، ومحاكاة أساليب هاتين اللغتين ، وترسم قواعدهما ومناهجهما فى البحث[1] . وقد أخذوا منذ عهد غير بعيد يقتبسون كثيراً من المفردات والأساليب عن اللغات الأوروبية الحديثة وخاصة الإنجليزية والألمانية . ولولا آلاف المفردات التى اقتبسها المحدثون من أدباء ألمــانيا وعلمائها من اللغة اللاتينية وما تفرع عنهــا ومن اللغات الأوروبية الحديثة وبخاصة الفرنسية والإنجليزية ، ما قويت لغة الكتابة بألمانيا أن تصل إلى الشأو الذى هى عليه الآن . ومثل هذا يقال فى معظم لغات الكتابة فى العصر الحاضر .

---

(١) انتشرت بفرنسا حركة المحاكاة للقواعد والأساليب اللاتينية بفضل كتاب القرن السابع عشر وعلى الأخص بزاك وديكارت وبوسويه Balzac, Descartes, Boussuet

وكثيراً ما تقتبس لغة الكتابة عن اللغات الأخرى مفردات لها نظير فى متنها الأصلى ؛ وكثيراً ما تقتبس مفردا من لغة وتقتبس نظيره فى الدلالة عن لغة أخرى . وإلى هذه الظواهر وما إليها يرجع السبب فى كثرة الألفاظ المترادفة (المشترك المعنوى) فى لغات الكتابة . فما يذهب إليه بعضهم من أن الترادف بالمعنى الكامل لهذه الكلمة لا وجود له فى اللغات ، ليس صحيحاً إلا فيما يتعلق ببعض لغات المحادثة التى تظل بمأمن من الاحتكاك باللغات الأخرى . أما لغات الكتابة التى يستحيل فى العادة بقاؤها بمعزل عن غيرها ، ولغات المحادثة التى يتاح لها هذا الاحتكاك ، فلا تخلو من الترادف بالمعنى الصحيح ، للسبب الذى ذكرناه .

٢ — إحياء الأدباء والعلماء لبعض المفردات القديمة المهجورة . فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن معان لا يجدون فى المفردات المستعملة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً ، أو لمجرد الرغبة فى استخدام كلمات غريبة ، أو فى الترفع عن المفردات التى لاكتها الألسنة كثيراً . وبكثرة الاستعمال ، تبعث هذه المفردات خلقاً جديداً ، ويزول ما فيها من غرابة ، وتندمج فى المتداول المألوف . ولا يخفى ما لذلك من أثر فى نهضة لغة الكتابة واتساع متنها وزيادة قدرتها على التعبير . وقد سار على هذه الوتيرة بمصر فى العصر الحاضر كثير من الأدباء والعلماء والصحفيين ، فردوا بذلك إلى اللغة العربية جزءاً كبيراً من ثروتها المفقودة ، وكشفوا عن عدة نواح من كنوزها المدفونة فى أجداث المعجمات .

٣ — خلق الأدباء والعلماء لألفاظ جديدة . فكثيراً ما يلجئون إلى ذلك للتعبير عن أمور لا يجدون فى مفردات اللغة المستعملة ولا فى مفرداتها الدائرة ما يعبر عنها تعبيراً دقيقاً . وقد لا يضطرهم إلى ذلك إلا مجرد الرغبة فى الإبداع ، أو مجانبة

الألفاظ المتداولة المألوفة ، أو إبراز المعنى فى صورة رائعة وتثبيته فى الأذهان وتذليل سبل انتشاره بالإغراب فى تسميته . وقد عم استخدام هــــذه الطريقة فى الأمم الأوروبية منذ القرن التاسع عشر ، وكثر التجاء الأدباء والعلماء إليها بنوع خاص فى تسمية المستحدث من المخترعات الصناعية والمصطلحات العلمية والأحزاب والمبادئ السياسية والاجتماعية ، وفى التعبير عن بعض معان دقيقة فى عالم الأدب والفلسفة ؛ فناءت مؤلفاتهم بهذه الكلمات المصنوعة ، وتألف منها معظم المصطلحات فى الفلسفة وعلم النفس والعلوم الطبيعية والطب والصيدلة . . . وما إلى ذلك . وصبغ معظم هــذه المصطلحات بصبغة دولية . فأقرته المؤتمرات والهيئات العلميـة الممثلة لمختلف الأمم الأوروبية وعم استخدامها فى لغاتها (تلغراف ، تليفون ، ســوسيولوجيا ، جيولوجيا . . . الخ) . وقد أجاز مجمع فؤاد الأول للغة العربية الالتجاء إلى هــذه الطريقة حيث تدعو إلى ذلك ضرورة ، بأن لا يوجد فى مفردات اللغــة متداولها ومهجورها ما يعبر تعبيرا دقيقا عن الاصطلاح المراد التعبير عنه .

ولا يخفى ما لهذه الوسيلة من أثر فى نهضة لغة الكتابة ، واتساع متنها ، ودقة مصطلحاتها ، وزيادة مرونتها وقدرتها على التعبير .

وقد ارتضى الأدباء والعلماء بعض قواعد عامة فى وضع هذه الألفاظ . ويستعينون عادة فى تكوينها بالنحت والاشتقاق الأكبر ومزج كلمتين أو أكثر فى كلمة واحدة. ويستمدون أصولها من اللغات الحية أو الميتة وخاصة اللاتينية واليونانية القديمـة . وكثيراً ما يستعان فى تكوينها بأكثر من لغة واحـدة . فمن هذه المفردات ما هو مؤلف من لغتين (مثلا : «سوسيولوجيا» أى علم الاجتماع ؛ فصدر الكلمة من أصل لاتينى معناه الجماعة ، وعجزها من أصل يونانى معناه المقال أو البحث أو الخطبة)

« Sociologie» du latin «societas», société, et du grec «logos», discours.

بل منها ما هو مؤلف من ثلاث لغات (مثلا: «بيسيكلت» أى الدراجة ؛ فإن «بى» من أصل لاتينى يدل على التثنية ، و « سيكل » من أصــل يونانى معناه الدائرة ، و « إت » علامة فرنسية للتصغير) Bicyclette: du latin « bi », deux fois, et du grec « kuklos »,cercle, et du suffixe diminutif frauçais « tte ».

وقوام هذه المفردات هو التواضع والاصطلاح . ولذلك كثيراً ما تختلف معانيها اختلافا يسيراً أو كبيراً عن معانى الأصول التى استمدت منها .

ولا تبقى هذه الألفاظ جامدة على الحالة التى وضعت عليها ، بل ينالها ما ينال غيرها من المفردات ، وتخضع فى تطورها الصوتى والدلالى لنفس القوانين العامة التى تخضع لها الألفاظ الأصــيلة . فبمجرد أن يقذف بها فى التداول اللغوى وتتناقلها الألسنة ، تفلت من إرادة مخترعيها وتخضع لنواميس الارتقاء العامة المسيطرة على ظواهر الصوت والدلالة . فاللفظ الموضوع أشبه شىء بحجر يقذف به القاذف فى جهة معينة بقوة خاصة ؛ فإنه بمجرد أن يفارق يده يخضع فى سيره لقوانين ثابتة صارمة لا يد للقاذف ولا لغيره على تعطيلها أو وقف آثارها . ولذلك يختلف الآن النطق بالألفاظ الموضوعة ويختلف رسمها باختلاف الأمم واللغات . والأسلوب الصوتى الذى كانت تلفظ به منذ قرن أو قرنين مثلا غير الأسلوب الصوتى الذى تلفظ به الآن . وقد أخذ كثير منها عند جميع الـكتاب أو عند بعضهم ينحرف فى دلالته نفسها عن المعنى الذى وضع له فى الأصل .

ثالثاً — المؤلفات اللغوية .

وهى البحوث التى ترمى إلى حفظ اللغة وضبطها وسلامتها وتخليدها والوقوف على خواصها وتاريخها وآثارها . . . وما إلى ذلك . فتشمل المعجمات ودوائر المعارف وكتب القواعد بمختلف أنواعها (النحو ، الصرف ، الاشتقاق ، الوضع ، البيان ، المعانى ، البديع . . . الخ) ، وأدب اللغة وتاريخه ، ودراسة أصوات اللغة ومخارج حروفها ودلالة كلماتها وحياتها والأدوار التى سارت فيها من مختلف نواحيها . . . وهلم جراً .

فلا يخفى ما لهذه الجهود من أثر جليل فى حياة لغة الكتابة وحفظها من التحريف وتهذيبها ونهضتها ونقلها من السلف إلى الخلف .

رابعاً — نشاط حركة التأليف والترجمة ..

فن الواضح أنه لا حياة للغة الكتابة بدون استخدامها فى هذه الشئون ، وأنه بمقدار نشاط أهلها فى هذه الميادين تتاح لها وسائل الانتشار والرقى والنهوض .

(٤) انتقال اللغة من السلف إلى الخلف

على الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به بطريق التقليد والتعلم ، فإن لغة الخلف فى كل أمة تختلف عن لغة السلف فى كثير من المظاهر .

ويرجع بعض أسباب هذا التطور إلى أمور اجتماعية ؛ ولكن طائفة غير يسيرة منها ترجع إلى أمور غير اجتماعية .

١ — أما العوامل الاجتماعية التى تؤثر فى هذا التطور فيرجع أهمها إلى أمرين :

(أحدهما) النظم والتقاليد التى يسير عليها المجتمع فى تلقين الأطفال اللغة فى الأسرة وتعليمهم إياها فى المدارس . فلا يخفى ما لهذه النظم من أثر بليغ فى تطور اللغة فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، وفى مبلغ اختلافها فى كل جيل عن الجيل السابق له .

وغنى عن البيان أن هذه النظم تترجم عن اتجاهات المجتمع وما يرمى إليه من أهداف فى شئون التربية والتعليم وإعداد النشء للحياة المستقبلة . فهى إذن أمور اجتماعية خالصة .

(وثانيهما) كثرة استخدام الكبار فى جيل ما لبعض المفردات فى غير ماوضعت له عن طريق التوسع أو المجاز لدواع اجتماعية خاصة . فقد يكثر استخدام الكلمة لداع من هذه الدواعى فى جيل ما فى ناحية معينة من نواحى دلالتها أو فى معنى مجازى تربطه بمعناها الأصلى بعض العلاقات ، فيعلق المعنى الخاص أو المجازى وحده بأذهان الصغار ، ويتحول بذلك مدلول الكلمة إلى هذا المعنى الجديد . وإليك مثلا كلمات الصلاة ، والحج ، والرث ، والمدام ، والنجعة ، والمجد ، والأفن ، والوغى ، والغفران ، ومحل الأدب ... : فقد كانت هذه الكلمات تطلق فى الأصل على الدعاء ، والاتجاه ، والخسيس من كل شىء ، وكل ما سكن ودام ، وطلب الغيث ، وامتلاء بطن الدابة بالعلف ، وقلة لبن الناقة ، واختلاط الأصوات ، والستر ، وحيث يلزم الأدب . . . ؛ ثم كثر استخدامها فى عصر ما ، لدواع اجتماعية خاصة ، فى معانى فريضة الصلاة ، وقصد البيت الحرام ، والخسيس مما يلبس أو يفرش فحسب ، والخمر ، وطلب أى شىء ، والعظمة ، ونقص العقل ، والحرب ، والصفح ، ومحل قضاء الحاجة . . . ؛ فعلقت هذه المعانى المجازية وحدها بأذهان الصغار ، وتحولت إليها

مدلولات هذه الكلمات فأصبحت حقيقة فيها . وإليك مثلا آخر كلمة saoul الفرنسية: فقد كان معناها فى الأصل « الشبعان » من الطعام ؛ ثم كثر استخدامها فى عصر فى النشوان من الخمر عن طريق المجاز والتهكم وللتحرج من استخدام الكلمة الصريحة فى هـــذا المعنى وهى كلمة ivre ، فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار فى هذا الجيل ، وتحول إليه مدلول هذه الكلمة ، فأصبحت صريحة فيه،[١] وانقرض معناها القديم .

وإلى هذا العامل يرجع أهم الأسباب فى تحول الكلمات إلى معان كانت مجازية فى الأصــل وفيما يعترى المدلولات فى نطاقها من سعة أو ضيق . بل إن طائفة من العلماء ، على رأسها العلامة هرزوج Herzog ، قد رجعت إلى هذا العامل وحده كل ما يحدث من تطور فى الدلالة[٢] .

* * *

فالدعائم التى يقوم عليهـا التطور اللغوى الناشىء عن هذين الأمرين وما إليهما لا تختلف فى شىء عن الدعائم التى يعتمد عليهـا التطور الناشىء عن العوامل المشار إليها فى الفقرات الثلاث السابقة . فكلا التطورين يرجع إلى ظواهر الاجتماع ، وتدعو إليه مقتضيات الحياة الاجتماعية . وكل ما بينهما من فرق أن التطور الناشىء عن هذين الأمرين يحدث فى أثناء انتقال اللغــة من السلف إلى الخلف ؛ على حين

---

(١) لا تقل الآن كلمة saoul عن كلمة ivre فى صراحتها فى التعبير عن النشوان ، إن لم تزد عنها فى ذلك .

(٢) Meillet, dans «L'Année Sociologique», T. 9, P. P. 6, 7; et Herzog, «der Romanischen Philologie».

أن التطور الناشئ عن العوامل المشار إليها فى الفقرات الثلاث السابقة يعتور اللغة فى مراحل أخرى من مراحل حياتها .

* * *

٢ — وأما العوامل غير الاجتماعية التى تؤدى إلى تطور اللغة فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، فيرجع أهمها كذلك إلى أمرين يؤثر كلاهما فى تطور الأصوات خاصة :

(أحدهما) التطور الطبيعى المطرد لأعضاء النطق فى الإنسان (قانون روسلو Rousselot) . فمن المقرر أن هذه الأعضاء غير جامدة على حالة واحدة ، وأنها فى تطور طبيعى مطرد فى بنيتها واستعدادها ومنهج أدائها لوظائفها ، وأنها فى كل جيل تختلف عنها فى الجيل السابق له . فحناجرنا وحبالنا الصوتية وألسنتنا وحلوقنا وسائر أعضاء نطقنا تختلف عما كانت عليه عند آبائنا الأولين ، إن لم يكن فى بنيتها الطبيعية فعلى الأقل فى استعداداتها[1] ؛ بل إنها لتختلف عما كانت عليه عند آبائنا المباشرين . غير أن هذا التطور يسير ببطء وتدرج ، حتى أن آثاره لا تكاد تحس بين جيلين متتابعين ؛ ولكنها تبدو واضحة كل الوضوح بالموازنة بين جيلين من شعب واحد تفصلهما حقبة كبيرة من الزمن .

ومهما يكن من شىء ، فإن كل تطور يحدث فى أعضاء النطق أو فى استعدادها ،

---

(١) يكاد العلماء يجمعون على أن أعضاء النطق فى الشعب الواحد والظروف المتشابهة تتطور استعداداتها وتختلف باختلاف الأجيال والعصور . أما تطور بنيتها الطبيعية فى الشعب الواحد والظروف المتشابهة فقد اختلف العلماء بصدده : فمن منكر له ؛ ومن قائل به . والمذهب الأخير هو الأدنى إلى الصواب .

مهما كان مبلغه ، يتبعه تطور فى أصوات الكلمات ؛ فتنحرف هذه الأصوات عن الصورة التى كانت عليها إلى صورة أخرى أكثر منها ملاءمة مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق .

ومن ثم لم يكن بد من أن يحدث فى أصوات كل لغة انحراف ما فى أثناء انتقالها من السلف إلى الخلف ، تبعاً لما يمتاز به أولئك عن هؤلاء من خصائص ناشئة عن التطور الطبيعى فى أعضاء النطق ، ولما تقضى به سنن الطبيعة من اختلاف هذه الأعضاء فى كل جيل عنها فى الجيل السابق له .

وقد كان لكشف هذا القانون أجلّ أثر فى نهضة البحوث اللغوية المتعلقة بالتطور الصوتى ، وفى القضاء على كثير من النظريات الفاسدة القديمة[١] .

وقد جرت العادة بنسبة هذا القانون إلى العلامة روسلو Rousselot[٢] ؛ لأنه وقف قسطاً كبيراً من جهوده على دراسته ، وتدعيمه بالأدلة القاطعة ، وتحرى حقائقه بطرق البحث القديمة وبطريقة جديدة لم يكد يسبقه أحد إليها وهى طريقة استخدام الأجهزة فى دراسة الأصوات اللغوية ، التى اشتهرت باسم طريقة « الفونيتيك التجريبى Phonétique expérimentale »[٣]. ومع ذلك فإن روسلو لم يكن أول من اهتدى إلى هذا القانون ، بل قد سبقه إلى ذلك عدد كبير من الباحثين من أشهرهم العلامة هرمان پول Herman Pual[٤] .

---

(١) أنظر بعض هذه النظريات فى كتابنا «علم اللغة» الطبعة الثانية صفحات ٢٠٢ ــ ٢٠٤.

(٢) انظر كتابه «دراسة التطورات الصوتية فى اللغة» Etudes sur les changements phonétiques وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٨٩٠ .

(٣) انظر تفاصيل هذه الطريقة بكتابنا علم اللغة ٣٢ ــ ٣٤ الطبعة الثانية .

(٤) انظر تفصيل ذلك بكتابنا علم اللغة صفحات ٤٣ ــ ٤٦ الطبعة الثانية .

وليس من الميسور وضع قواعد عامة مضبوطة لاتجاهات هذا التطور ؛ لأن الأمر يختلف اختلافا كبيراً باختلاف اللغات والبيئات والشعوب . فبحسبنا أن نضرب أمثلة من الظواهر الصوتية المترتبة عليه .

فمن ذلك ماحدث فى اللغة العربية بصدد أصوات الجيم والثاء والذال والظاء والقاف . فقد أصبحت هـذه الأصوات ثقيلة على أعضاء النطق فى كثير من البلاد العربية ، وأصبح لفظها على الوجه الصحيح يتطلب تلقيناً خاصاً ومجهوداً إراديا وقيادة مقصودة لحركات المخارج . ولعدم ملاءمتها مع الحالة التى انتهت إليها أعضاء النطق فى هذه البلاد أخذت تتحول منذ أمد بعيد إلى أصوات أخرى قريبة منها . فالصوت الأول (الجيم) الذى كان ينطق به معطشا بعض التعطيش فى العربية الفصحى قد تحول فى معظم المناطق المصرية إلى جاف (جيم غير معطشة) ، وفى معظم المناطق السورية والمغربية إلى جيم معطشة كل التعطيش (j)[1] . ـ والثاء قد تحولت إلى تاء فى معظم المناطق المصرية وفى بلاد أخرى (فيقال : توب ، تلج ، تخين ، تعلب ، تعبان ، تفل ، تقيل ، تلت ، تلاته ، تمن ، تمانيه ، تور ، اتنين ، نتر ، جتة ، عتة ، عتر ... الخ ، بدلا من : ثوب ، ثلج ، ثخين ، ثعلب ، ثعبان ، ثفل ، ثقيل ، ثلث ، ثلاثه ، ثمن ، ثمانية ، ثور ، اثنان ، نثر ، جثة ، عثة ، عثر ... الخ[2]) ـ والذال قد تحولت فى كثير من المناطق العربية إلى دال فى معظم الكلمات (فيقال : داب ، دراع ، ديب ، ده ، دى ، دبل ، دبح ، دبان ، دأن ، أدان ، ودن ، دهب ، ديل ... الخ ، بدلا من : ذاب ، ذراع ، ذئب ، ذا ، ذى ، ذبل ، ذبح ، ذُبان ، ذقن ،

(١) لا يزال ينطق بصوت الجيم نطقا صحيحا فى عامية العراق وبعض المناطق المصرية ، وخاصة فى مديرية الشرقية .

(٢) تحول هـذا الصوت فى كلمات قليلة إلى سين أو صاد : ثواب ينطق بها أحيانا سواب أو صواب .

أذان ، أذن ، ذهب ، ذيل . . . الخ) ؛ وإلى زاى فى بعض الـكلمات (فيقال مثلا : زنْب ، زهن ، زكى ، بزر ، رزالة . . . الخ ، بدلا من : ذنْب ، ذهن ، ذكى ، بذر ، رذالة ... الخ) . ـ والظاء قد تحولت إلى ضاد فى معظم الـكلمات (فيقال : ضلام ، ضفر ، ضل ، ضهر ... الخ ، بدلا من : ظلام ، ظفر ، ظل ، ظهر ... الخ) ؛ وإلى زاى مفخمة فى بعض الـكلمات (كما ينطق فى عامية المصريين بكلمات : ظالم ، ظريف ، أظن : حظ ... الخ)[١] . والقاف قد تحولت إلى همزة فى بعض اللهجات المصريةوالسورية (فيقال : أط ، ألت ، أبل ، عأد ، نطأ . . . الخ ، بدلا من : قط ، قلت ، قبل ، عقد ، نطق ... الخ) ؛ وإلى جاف (جيم غير معطشة) فىمعظم اللهجات العامية بمصر وغيرها من البلاد العربيـة (فيقال : جط ، جلت ، جبل ، عجد ، نطج ... الخ)[٢] .

ومثل هذا حدث فى كثير من اللغات الأوروبية . فمن ذلك ما لوحظ بصدد تطور الراء الفرنسية فى منطقة باريس وما إليها . فقد كان ينطق بها قديماً فى صورة مرققة ؛ ثم أخذت تنحرف عن مخرجها تبعاً لتطور أعضاء النطق واستعدادها حتى قربت من آخر الحلق ، فتحولت إلى صوت بين الراء والغين ، وأصبح صوتها القديم

---

(١) لايزال ينطق بأصوات الثاء والذال والظاء نطقا صحيحا فى عامية العراق والمغرب وخاصة فى طرابلس وفى القبائل العربيـة النازحة إلى مصر (الفوايد ، الرماح ، البراعصة ، أولاد على ، الضعفاء، سمالوس ... الخ) .

(٢) لايزال صوت القاف محتفظا بنطقه الصحيح فى كثير من الـكلمات فى عاميـة العراق وعامية رشيد . وكان مستعملا منذ عهد غير بعيد فى بعض مناطق بنىسويف ؛ وقد سمعت أنا نفسى بعض شيوخ أسرتى (ببلدة الحمام مركز بنى سويف) يتكلمون بالقاف ؛ ولا يزال العامة فى هذه المناطق يتكلمون بالقاف حينما يروون عبارة منسوبة إلى أجدادهم فى الأقاصيص الشعبية وما إليها ؛ وهذا يدل على أن صوت القاف لم ينقرض لديهم إلا منذ أمد قريب .

ثقيلا على الألسنة يتطلب لفظه من أهل هـذه المناطق مجهوداً إراديا وقيادة مقصودة لحركات المخارج .

هذا ، ولا يقتصر أثر العامل الذى نحن بصدده على تحريف بعض أصوات الـكلمة عن مخارجها الأولى ، بل قد يؤدى إلى انقراض الـكلمة برمتها انقراضا تاما من لغة المحادثة . وذلك أن ثقل الـكلمة على اللسان ، أو عدم تلاؤم أصواتها مع الحالة التى انتهى إليها تطور أعضاء النطق فى جيل ما ، كثيراً ما يعرضها هى نفسها للزوال . وإلى هذا يرجع السبب فى انقراض كثير من الـكلمات العربية من لغات التخاطب العامية فى العصر الحاضر .

(وثانيهما) الأخطاء السمعية التى تنشأ عن ضعف بعض الأصوات والتى تؤدى إلى سقوط هذه الأصوات فى أثناء انتقال اللغة من السلف إلى الخلف (قانون روسلو ومييه Rousselot-Miellet) . فقد يحيط بالصوت بعض مؤثرات تعمل على ضعفه بالتدريج ، فيتضاءل جرسه شيئاً فشيئاً ، حتى يصل فى عصر ما إلى درجة لا يكاد يتبينه فيها السمع . فحينئذ يكون عرضة للسقوط فى لغة الخلف . وذلك أن معظم الصغار فى هذا العصر لا يكادون يتبينونه فى نطق الـكبار ، فينطقون بالـكلمات مجردة منه ، ولا يفطن الآباء لسقوطه فى لغة أولادهم لنفس السبب الذى من أجله لم يفطن الأولاد لوجوده فى لغة آبائهم .

ويرجع أكبر قسط من الفضل فى توضيح هذا العامل وبيان آثاره إلى الأستاذين روسلو ومييه Rousselot-Miellet ؛ ولذلك تنسب إليهما نظريته[1] .

V. Dauzat : Les Patois, p. 118 ; Meillet : Linguistique Générale, p.79; Delacroix : Le Langage et la Pensée, p. 180 et suiv.

ولا يخفى ما لهذا العامل من أثر بليغ فى تطور اللغة من ناحيتها الصوتية . فإليه يرجع السبب فى سقوط كثير من الأصوات الواقعة فى أواخر الكلمات فى عدد كبير من اللغات الهندية ـ الأوروبية الحديثة . ومن ثم نرى اختلافا بينا فى هذه الناحية بين رسم الكلمة ونطقها فى هذه اللغات . فكثيراً ما ترسم فى آخر الكلمة زوائد لا ينطق بها فى العصر الحاضر ، وإن كانت تمثل أصوات الكلمة فى أدوارها الأولى. ومعظم أصوات اللين المتطرفة فى اللغة اللاتينية قد انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها[١] . ففى البروفنسية Provençale والفرنسية لم يكد يبقى شىء منها[٢] ، وفى الأسبانية سقط من هذه الأصوات صوتان وهما I.E .

وإلى هذا العامل (مع عوامل أخرى سيأتى ذكرها فى الفقرة السادسة من هذا الفصل) يرجع السبب كذلك فيما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات المد القصيرة (المسماة بالحركات والتى يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) والطويلة (الألف والياء والواو) وبعض الأصوات الساكنة الواقعة فى أواخر الكلمات . ففى جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والسودان والحجاز والعراق والشام وفلسطين واليمن والمغرب ... الخ) قد انقرضت فى النطق أصوات المد القصيرة الواقعة فى أواخر الكلمات ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء . فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الكلمات مسكنة الأواخر . ولعلّ هذا هو أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية . فقد أتى جميع الكلمات فانتقصها

---

(١) يستثنى من ذلك الإيطالية ، فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .

(٢) انقرضت جميعها فى الواقع ماعدا صوت a فى بعض صوره وما عدا بعض حالات شاذة .

من أطرافها ، وجردها من علامات إعرابها الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب . وقد تضاءلت كذلك أصوات المد الطويلة الواقعة فى أواخر الكلمات العربية فى عامية المصريين وغيرهم ، حتى كادت تنقرض تمام الانقراض، سواء فى ذلك ما كان منها داخلا فى بنية الكلمة (رمى ، يرمى ... الخ) وما كان خارجا عنها (ضربوا ، ناموا ... الخ) . فيقال مثلا فى عامية المصريين : « رامِ وعيسَ ومصطفَ أبُ حسين سافرُ يوم الخميس لجرجَ » بدلا من « رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » . وفى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية قد انقرض كذلك فى النطق من أواخر الكلمات التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتان[1] . فيقال مثلا فى عامية المصريين : « محمدْ ولدْ مطيعْ ؛ الأولاد بيلعبُ ؛ الهوَ شديدْ ؛ انتظرتُ ساعَ كاملَ » بدلا من « محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرته ساعة كاملة »[2] .

(٥) العوامل الطبيعية

نعنى بهذه العوامل ما يشمل الظواهر الجغرافية والفيزيولوجية والبيولوجية والإتنولوجية . . . وما إلى ذلك من الأمور التى تتصل بالبيئة الطبيعية أو بوظائف الأعضاء أو بتطور الناحية الجسمية فى الإنسان أو باختلاف الشعوب فى خواصها الوراثية ... وهلم جراً .

---

(١) التاء المربوطة حكمها فى ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

(٢) انظر تفاصيل هذا كله فى كتابنا « علم اللغة » ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٤ ـ ٢١٦ ؛ وفى كتابنا « فقه اللغة » صفحات ١١٦ ـ ١١٨ (الطبعة الثانية للكتابين) .

ومع اختلاف أنواع هـذه الطائفة بعضها عن بعض ، فإنها تتفق جميعاً فى أنها عوامل غير اجتماعية ، أى لا تنبعث عن ظواهر الاجتماع ولا تنشأ عن العقل الجمعى .

والتطور اللغوى الناشئ عن هـذه الطائفة من العوامل ، تبدو بعض آثاره فى مرحلة انتقال اللغة من السلف إلى الخلف ، ويبدو بعضها الآخر فيما عدا ذلك من العوامل .

وقد عرضنا فى الفقرة السابقة لأهم مظاهرها فى مرحلة انتقال اللغة من السلف إلى الخلف[1] . وسنقتصر فى هذه الفقرة على الكلام عن مظاهرها فيما عدا ذلك .

* * *

ترجع أهم هذه المظاهر إلى أمرين رئيسيين : أحدهما البيئة الجغرافية ؛ وثانيهما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض فى خواصها الوراثية المتعلقة بأعضاء النطق :

١ — فأما البيئة الجغرافية فإن لها أثراً ذا بال فى خصائص اللغة وفى كثير من مظاهر التطور اللغوى . وذلك أن ما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية . فجميع خصائص الإقليم الطبيعية تنطبع فى لغة سكانه ، وتتجه بها فى سبيل التطور وجهة خاصة . ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة فى مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الحارة والمعتدلة والباردة ، وبين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية ، وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية ؛ ونشأت فروق غير يسيرة بين أفراد الفصيلة اللغوية الواحدة ، بل بين لهجات اللغة الواحدة . ومن أجل ذلك أيضاً غزرت فى كل

---

(١) انظر صفحات ٤٨ — ٥٤ .

لغة المفردات التى تدور حول مظاهر بيئتها الجغرافية ، ودقت دلالاتها ، وانبثت فى شتى فنون القول . ومن أجل ذلك أيضاً كان قسط كبير من مادة الخيال والتشبيه فى كل لغة مستمداً من مظاهر البيئة وما اختصت به طبيعة البلاد . ومن أجل ذلك أيضاً تمثل فى أسلوب اللغة وفنونها الأدبية ما تختص به بيئتها الطبيعية من تلبد أو صفاء ، وقبح أو جمال ، وصخب أو هدوء ، وتنوع أو اطراد ، وتقلب أو ثبات ، وما ينبعث عنها من رخاوة أو قوة ، وخمول أو نشاط ، وخشونة أو نعيم . ولهذا كله يستطيع الباحث معرفة البيئة الأولى التى نشأت فيها لغة ما على ضوء مفردات هـذه اللغة ، وغزارتها فى بعض النواحى وجدبها فى نواح أخرى ، وما تجنح إليه أساليبها ومادتها فى الخيال والتشبيه وخواص آدابها ... وما إلى ذلك .

وغنى عن البيان أن البيئة الجغرافية لا تستقل بإحداث أى أثر من الآثار السابقة، بل يتضافر معها على ذلك عوامل أخرى معظمها اجتماعى؛ وأن التطور اللغوى ، حيث يتأثر بالبيئة الجغرافية ، لا يتأثر بها فى صورة مباشرة ، وإنما ينجم عن ظواهر اجتماعية أو نفسية كان لهذه البيئة دخل ما فى نشأتها أو فيما تسلكه من مناهج .

٢ — وأما اختلاف الشعوب بعضها عن بعض فى خواصها الوراثيـة المتعلقة بأعضاء النطق، فإن له كذلك أثراً لا يستهان به فى خواص اللغة وفى كثير من مظاهر التطور اللغوى ، وخاصة ما يتعلق منهـا بناحية الأصوات . وذلك أن أعضاء النطق تختلف فى بنيتها واستعدادها ومنهج تطورها تبعاً لاختلاف الشعوب وتنوع الخواص الطبيعية المزود بها كل شعب والتى تنتقل عن طريق الوراثة من السلف إلى الخلف . حقاً إن أعضاء النطق تظل مرنة كل المرونة طوال المرحلة الأولى من مراحل الطفولة . فمن المشاهد أن الطفل فى هـذه المرحلة لا يستعصى عليه اكتساب أى لغة

عن طريق التقليد، مهما كانت هذه اللغة بعيدة عن لغة أبويه، بل فى استطاعته أن يكتسب بهذه الوسيلة عدة لغات أجنبية إذا أتيحت له فرص الاختلاط بالمتكلمين بها، ويصل فى إجادتها جميعاً إلى درجة لا يستطيع معها أكبر خبير فى اللغات أن يميزه من أهلها. ولكن ليس من شك فى أنه كلما تقدمت به السن ظهرت عنده الاستعدادات الصوتية الكامنة الخاصة بأمته، ورسخت لديه عاداتها الكلامية، فتفقد أعضاء نطقه مرونتها شيئاً فشيئاً، وتتشكل بالشكل الذى فطرت عليه فى شعبه، وتسلك فى تطورها منهجاً خاصاً يختلف عن المنهج الذى تسلكه أعضاء النطق فى الشعوب الأخرى.

ولا يخفى ما يترتب على اختلاف الشعوب بهذا الصدد من آثار خطيرة فى التطور الصوتى فى مختلف اللغات.

فإلى هذا يرجع بعض السبب فى اختلاف اللغة الواحدة فى تطورها الصوتى باختلاف الشعوب الناطقة بها. وذلك أنها تسلك فى تطورها الصوتى عند كل شعب منها مسلكا يتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه فى طبيعتها واستعدادها ومنهج ارتقائها. فاللاتينية مثلا قد سلكت فى تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها مسلكا يختلف عن مسلكها فى الشعوب الأخرى؛ فلم تلبث أن انشعبت من جراء ذلك إلى عدة لغات (الفرنسية، الإيطالية، الإسبانية، البرتغالية، لغة رومانيا . . . الخ). واللغة العربية قد اتجهت كذلك فى تطورها الصوتى عند كل شعب من الشعوب الناطقة بها وجهة تختلف عن وجهتها عند غيره؛ فلم تلبث أن تولد عنها من جراء ذلك عدة لهجات (عامية العراق، عامية الشام، عامية نجد والحجاز، عامية اليمن، عامية مصر، عامية المغرب ... الخ). حقاً إن كثيراً من مظاهر هذا

الاختلاف يرجع إلى عوامل اجتماعية أونفسية أو إلى آثار البيئة الجغرافية [1]؛ ولكن ليس من شك فى أن بعض هذه المظاهر يرجع إلى العامل الشعبي الذى نحن بصدد الكلام عنه.

وعلى هذا العامل يقع كذلك قسط من التبعة فيما يصيب اللغة من تحريف فى أصواتها حينما تنتقل من شعب إلى شعب آخر [2]؛ وذلك أنها تتشكل عند الشعب المنتقلة إليه فى الصورة التى تتفق مع ما فطرت عليه أعضاء نطقه وتكونها واستعدادها، فتبعد بذلك عن أصولها الأولى، ويزداد بعدها هذا كلما اتسعت مسافة الخلف بين أصول الشعبين. فما أصاب لغة الصقالبة من تحريف فى ألسنة البلغاريين يفوق كثيراً ما أصابها عند غيرهم؛ وذلك لأن الأصل الفينى Finois الذى ينحدر منه البلغاريون لا تربطه صلة قريبة بالأصل السلافى الذى ينتمى إليه الصقالبة. وما أصاب الأصوات اللاتينية من تحريف فى اللغة الفرنسية يفوق كثيراً ما أصابها فى اللغة الإيطالية؛ وذلك لأن الإيطاليين أقرب رحماً إلى قدماء الرومان من الفرنسيين؛ ففيهم يغلب الدم اللاتينى، بينما يغلب فى الفرنسيين الدم السلتى والجرمانى. ولهجات القسم الجنوبى من فرنسا كالجسكونية والبروفنسية ... الخ Gascon, Provençale .. etc أقرب إلى أصولها اللاتينية من لهجات القسم الشمالى؛ وذلك أن الدم اللاتينى فى سكان الجنوب أغزر منه فى سكان الشمال. ولهجات الجنوب نفسها تختلف فى مبلغ قربها إلى اللغة اللاتينية تبعاً لاختلاف الناطقين بها فى مبلغ قربهم إلى الأصل اللاتينى. ولذلك

---

(١) انظر صفحات ٨ — ٢٧، ٥٥، ٥٦.

(٢) نقول: «قسط من التبعة» لا كل التبعة؛ لأن لهذه الظاهرة أسبابا أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسبابا اجتماعية ونفسية وجغرافية ... الخ) سنعرض لها عند كلامنا على صراع اللغات فى الفصل الثانى.

كانت البروفنسية Provençal أقرب إلى اللاتينية من الجسكونية Gascon ؛ لأن البروفنسيين أدنى إلى اللاتين من الجسكونيين . ـ ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر (البراعصة ، الفوايد ، الرماح ، الجوازى ، أولاد على ، سمالوس . . . الخ) أدنى فى ناحيتها الصوتية إلى العربية الفصحى من لهجات المصريين أنفسهم ؛ وذلك لأنهم أقرب رحما إلى العرب من المصريين .

وعلى ضوء هذا العامل يمكن كذلك قياس مسافة الخلف بين «اللهجات المحلية» (وهى اللهجات التى يتكلم بها فى منطقة لغوية واحدة كلهجات البلاد المصرية) والوقوف على بعض الأسباب التى تؤدى إلى بعدها بعضها عن بعض[١] . فالمشاهد أن مبلغ اختلاف هذه اللهجات بعضها عن بعض فى أصواتها يتبع إلى حد كبير مبلغ اختلاف الناطقين بها بعضهم عن بعض فى أصولهم الشعبية . فكلما كان هؤلاء متجانسين فى أصولهم ضاقت مسافة الخلف بين لهجاتهم فى ناحيتها الصوتية ؛ وكلما تعددت الأصول الشعبية التى ينتمون إليها اتسعت هذه المسافة . فلهجات المصريين لا تختلف كثيراً بعضها عن بعض فى هذه الناحية ؛ وذلك لتجانسهم فى الأصول التى انحدروا منها . ـ ولهجات المنطقة الشمالية بفرنسا (منطقة باريس وما إليها)[٢] تختلف كثيراً عن لهجات المنطقة الجنوبية منها (طولون، نيس...الخ Toulon, Nice,) ، ولكن كلتا المنطقتين تحوى مجموعة متشابهة من اللهجات ؛ وذلك لأن سكان المنطقة الشمالية يختلفون فى أصولهم الشعبية عن سكان المنطقة الجنوبية ، ولكن كلتا

---

(١) تقول « بعض الأسباب » لأن لهذه الظاهرة أسبابا أخرى كثيرة غير هذا العامل (أسبابا اجتماعية وجغرافية ... الخ) ، سنعرض لها عند كلامنا على تفرع اللغة فى الفصل الثالث .

(٢) انقرض الآن معظم هذه اللهجات وحلت محلها الفرنسية الحديثة .

المنطقتين تضم من السكان مجموعة متجانسة فى هذه الأصول . — ولهجات المناطق الوسطى بفرنسا تختلف بعضها عن بعض اختلافا غير يسير ؛ وذلك لتعدد الأصول الشعبية التى ينتمى إليها سكان هذه المناطق[1] .

(٦) العوامل اللغوية

تتفق العوامل التى تكلمنا عنها فى الفقرات السابقة جميعاً فى أنها أمور خارجة عن اللغة التى تتأثر بها . أما العوامل التى سنتكلم عنها فى هذه الفقرة فهى أمور ذاتية فى اللغة نفسها . وذلك أن بنية اللغة ، ومتنها ، وأصواتها ، وعناصر كلماتها ، وقواعدها ... كل أولئك قد ينطوى على أمور ذاتية تعمل هى نفسها فى صورة آلية على التطور اللغوى وعلى توجيهه وجهة خاصة .

وتنقسم هذه العوامل من حيث الناحية اللغوية التى تنصب عليها أثرها إلى قسمين : عوامل تؤثر فى تطور الأصوات ؛ وعوامل تؤثر فى تطور الدلالة .

العوامل اللغوية المؤثرة فى تطور الأصوات :

فأما العوامل اللغوية التى تؤثر فى تطور الأصوات فيرجع أهمها إلى ثلاثة أمور : أحدها تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض ؛ وثانيها موقع الصوت فى الكلمة؛ وثالثها تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض . وسنتكلم فيما يلى على كل واحد منها على حدة .

أولا — تفاعل أصوات الكلمة بعضها مع بعض

يحدث بين الأصوات المتجاورة والمتقاربة فى الكلمة من ظواهر التفاعل أنواع كثيرة

---

(1) V. Dauzat; Vie du Langage p. 47

يؤدى كل نوع منها إلى نتائج ذات بال فى التطور الصوتى . ومن أهم ما سجله الباحثون بهذا الصدد الأمور الآتية :

١ — التفاعل بين الأصوات الساكنة (ونعنى بها ما يقابل أصوات اللين) .

يحدث أحيانا بين الصوتين المتجاورين أو المتقاربين فى الكلمة مثل مايحدث بين المواد المحملة بالكهرباء . فتجاور مادتين من هذه المواد يحدث بينهما تجاذبا إذا كانتا مختلفتين فى نوع كهربائهما بأن كانت إحداهما موجبة والأخرى سالبة ، وتنافرا إذا كانتا متحدتين فيه ، بأن كانت كلتاهما موجبة أو سالبة . وكذلك يفعل أحيانا التجاور أو التقارب بين الصوتين .

(ا) فإذا تجاور صوتان مختلفان فى مخارجهما أو تقاربا انجذب أحيانا كل منهما نحو الآخر ، فينتهى بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الأربع الآتية :

فتارة يلتصق أحدهما بالآخر ، فتنتقل الأصوات التى كانت تفصل بينهما إلى ما بعدها (ظاهرة النقل المكانى Metathèse)[١] ؛ كما حدث لحرفى b, r فى كلمة berbis إذ تحولت إلى brebis ، وفى كلمة abeuvrer إذ تحولت إلى abreuver .

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت من نوع الصوت الآخر (ظاهرة التشاكل assimilation)[٢] . فأحيانا يتحول الأول إلى نوع الصوت الثانى : كما حدث فى cercher

---

(١) ليس « النقل المكانى Nétathèse مقصوراً على الحالة التى نحن بصدد الكلام عنها؛ بل يطلق اصطلاحا على كل حالة ينتقل فيها صوت أو أكثر من موضعه فى الكلمة إلى موضع آخر كما سيأتى بيان ذلك فى ص ٧١ .

(٢) استخدمنا كلمة assimilation فى معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين ؛ لأنها لاتطلق فى معناها الاصطلاحى الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

إذ تحولت إلى chercher ؛ وكما حدث فى اللام الشمسية[1] فى اللغة العربية إذ تحولت فى النطق إلى صوت الحرف الذى يليها (التقوى ، الثوب ، الدار ، الذنب ، الرحمة ، الزهر ، السماء ، الشمس ، الصوت ، الضرر ، الطول ، الظلم ، الناب) ؛ وكما حدث فى الكلمة العربية « شمس » إذ تحولت فى بعض اللهجات العامية إلى « سمس » . وأحيانا يتحول الثانى إلى نوع الصوت الأول كما حدث فى gamba, render إذ تحولا إلى gamma, renner[2] ؛ وكما حدث فى الكلمة العربية «شمس» إذ تحولت فى بعض لهجات الصعيد إلى « شمش » .

وتارة يمتزجان معا ، فيتكون من امتزاجهما صوت ثالث به صفات من كليهما؛ كما حدث فى جميع الكلمات التى تجاور فيها صوتا l ,y ، إذ تحول هذان الصوتان فى الفرنسية إلى صوت واحد يجمع بين صفتيهما وهو صوت l, mouillé

وأحيانا يتلاشى أحدهما فى الآخر : فيبقى الثانى وحده ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية accaptar إذ تحولت فى الفرنسية إلى acheter ؛ أو يبقى الأول وحده ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية cliave إذ تحولت فى الإيطالية إلى chiave (ينطق بها Kyave)[3] .

(ب) وإذا تجاور صوتان متحدان أو تقاربا فإنهما يتنافران أحيانا ، فينتهى بهما الأمر إلى واحدة من النتائج الثلاث الآتية :

---

(١) وهى لام التعريف المتبوعة بأحد الحروف الآتية : ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ن

(٢) تحول الصوت الأول إلى نوع الصوت الثانى هو الغالب فى هذه الحالة V. Dauzat; La vie du Langage p. p. 57, 79.

(٣) انقراض الأول وبقاء الثانى هو الغالب فى هذه الحالة V. Dauzat op. cit. 57,78

فتارة يتحول صوت أحدهما إلى صوت مغاير للآخر (ظاهرة التباين dissimilation).[1]
ويقع هذا على ضربين: فأحيانا يتحول أولها كما حدث فى orphan i nus, peregrinum
إذ تحولا فى الفرنسية إلى orphelin, pelerin ؛ وأحيانا يتحول ثانيهما ، كما حدث
فى الكلمة اللاتينية cr_ib rum إذ تحولت فى الفرنسية إلى crible ، وكما حدث لصوتى
اللام المشددة فى اللاتينية إذ تحول صوتها الثانى إلى ياء فى معظم الكلمات الإسبانية
(castella تحولت إلى castilla وينطق بها castilya)[2] .

وتارة يسقط أحدهما فى النطق: كما حدث فى معظم الأصوات المشددة فى اللاتينية،
إذ تحولت فى النطق الفرنسى والبروفنسى Provençal والأسبانى إلى أصوات مخففة؛[3]
وكما حدث فى معظم الأصوات المشددة فى العربية إذ تحولت فى لهجات كثير من
بلاد الشرقية إلى أصوات مخففة (فيقال مثلا : « كلْمى، أمْها ، عمْها ، منْ كلْ بدْ »
بدلا من : « كلّمى ، أمّها ، عمّها ، من كلّ بدّ ») .

وتارة يتساقطان معا ويحل محلهما صوت واحد غريب عنهما . كما حدث فى صوتى
اللام المشددة فى اللاتينية ، إذ تحولا فى الجسكونية Gascon إلى تاء t فى حالة وقوعهما
فى آخر الكلمة وإلى راء r فى حالة وقوعهما بين حرفى لين (فالكلمتان اللاتينيتان
bellum, bella تحولا فى الجسكونية إلى bèt, bera)[4] .

---

(١) استخدمنا كلمة dissimilation فى معناها الواسع الذى يشمل التفاعل بين صوتين متجاورين؛ لأنها لا تطلق فى معناها الاصطلاحى الضيق إلا على التفاعل بين صوتين يفصل بينهما فاصل .

(٢) تحول الأول إلى صوت مغاير للثانى هو الغالب فى هذه الحالة V.Dauzat, op. cit. 57, 79

(٣) وهــذا فيما عدا اللام المشددة V. Dauzat op. cit. 79 . ونقول « فى النطق الفرنسى ... » لأن معظمها لايزال محتفظا بشكله القديم فى الرسم .

(٤) V. Dauzat op. cit. 79.

٢ — التفاعل بين أصوات اللين .

وتجاور صوتى لين أو تقاربهما فى الكلمة يجعلهما كذلك عرضة للتغير والانحراف .

فتارة يلتصقان بعد تباعدهما ، فتسقط الأصوات التى تفصلهما ، ويتكون منهما صوت لين مركب diphtongue ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية reg i na إذ تحولت فى الفرنسية القديمة إلى reīne[١] .

وتارة يتباعدان بعد التصاقهما ، فيقحم بينهما صوت ساكن (أى غير لين) لتسهيل النطق بهما كما حدث فى الكلمة الفرنسية القديمة pooir إذ تحولت فى الفرنسية الحديثة إلى pouvoir .

وتارة يتحول أحدهما إلى صوت لين آخر إذا كانا متحدين ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية v i c i nu s إذ تحولت فى لغة التخاطب عند الرومان إلى v e c i n u s .

وتارة يخرج أحدهما عن فصيلته خروجا تاما ، فيتحول إلى صوت ساكن[٢] (ونعنى به مايقابل أصوات اللين) ، كما حدث فى الكلمة اللاتينية plattea إذ تحولت plattsa[٣] ، وكما حدث فى اللهجات العامية لبعض المقاطعات الفرنسية (اوفرنى وفوريز ودوفينى Auvergne, Forez, Dauphiné) إذ تحولت فيها الكلمات التى من قبيل fialo. tialo إلى fsalo, tsala .

---

(١) تحولت هذه فى الفرنسية الحديثة إلى reine التى ينطق بها rène خضوعا لقانون « التناوب بين أصوات اللين » الذى سنتكلم عنه فى صفحة ٧٢ وتوابعها .

(٢) يتحول إلى ذلك فى الغالب الصوت الأول منهما كما يظهر من الأمثلة التى سنذكرها .

(٣) تحولت هذه فى الفرنسية إلى place.

ثانيا — موقع الصوت فى الـكلمة

وموقع الصوت فى آخر الـكلمة أو فى وسطها أو فى أولها يعرضه كذلك لـكثير من صنوف التطور والانحراف .

١ — وأكثر ما يكون ذلك فى الأصوات الواقعة فى أواخر الـكلمات سواء أكانت أصوات لين أم أصواتا ساكنة (ونعنى بالساكنة ما عدا أصوات اللين) .

(ا) أما أصوات اللين فقد لوحظ أن وقوعها فى آخر الـكلمة يجعلها فى الغالب عرضة للسقوط ، ويؤدى أحيانا إلى تحولها إلى أصوات أخرى .

فمن ذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات اللين القصيرة (المسماة بالحركات وهى الفتحة والـكسرة والضمة) التى تلحق أواخر الـكلمات . ففى جميع اللهجات العامية المنشعبة عن العربية (عاميات مصر والعراق والشام وفلسطين والحجاز واليمن والمغرب . . . الخ) قد انقرضت هذه الأصوات جميعا ، سواء فى ذلك ما كان منها علامة إعراب وما كان منها حركة بناء. فينطق الآن فى هذه اللهجات بجميع الـكلمات مسكنة الأواخر (فيقال مثلا : « رجعْ عمرْ للمدرسة بعدْ ما خفْ من عياه » بدلا من « رجعَ عمرُ إلى المدرسة بعد ما خفَّ من إعيائه ») . ولعل هـذا هو أكبر انقلاب حدث فى اللغة العربية ؛ فقد أتى جميع الـكلمات فانتقصها من أطرافها ، وجردها من العلامات الدالة على وظائفها فى الجملة ، وقلب قواعدها القديمة رأساً على عقب .

ومن هـذا القبيل كذلك ما حدث فى اللغة العربية بصدد أصوات اللين الطويلة (الألف والياء والواو) الواقعة فى آخر الـكلمات . فقد تضاءلت هذه الأصوات فى عامية المصريين وغيرهم حتى كادت تنقرض تمام الانقراض ، سواء فى ذلك ما كان منها داخلا فى بنية الـكلمة ، (رمى ، يرمى ... الخ) وما كان خارجا عنها (ضربوا ،

ناموا ... الخ) . فيقال مثلا فى عامية المصريين : « رام ِ وعيسَ ومصطف أبُ حسين سافرُ يوم الخميس لجرجَ » بدلا من : « رامى وعيسى ومصطفى أبو حسين سافروا يوم الخميس إلى جرجا » .

وما حدث فى اللغة العربية حدث مثله فى كثير من اللغات الأخرى . فمعظم أصوات اللين المتطرفة فى اللغة اللاتينية قد انقرضت فى اللغات المنشعبة عنها[١] . ففى الإسبانية سقط من هذه الأصوات صوتان وهما i,e[٢] ، وفى البروفنسية provençal والفرنسية القديمة لم يكد يبق شىء منها[٣] . وبعض هذه الأصوات قد تحول إلى أصوات لين أخرى ؛ كما حدث لصوت a إذ تحول فى الفرنسية القديمة إلى e canta, chant e; lenta,lent e; fava, fèv e[٤] .

(ب) ووقوع الصوت الساكن (ونعنى به ما يقابل صوت اللين) فى آخر الكلمة يجعله كذلك عرضة للتحول أو السقوط .

فمن ذلك ماحدث فى اللغة العربية بصدد التنوين ونون الأفعال الخمسة والهمزة والهاء المتطرفتين[٥] . فقد انقرضت هذه الأصوات فى معظم اللهجات العامية المنشعبة عن العربية ، كما يظهر ذلك من الموازنة بين العبارات العربية المدونة فى السطر الأول ونظائرها فى عامية المصريين المدونة فى السطر الثانى :

---

(١) يستثنى من ذلك الإيطالية فقد احتفظت بمعظم هذه الأصوات .

(٢) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة بقى فيها أحد هذين الصوتين .

(٣) انقرضت جميعها فى الواقع ما عدا صوت a الذى سيأتى الكلام عنه وما عدا بعض حالات شاذة .

(٤) يستثنى من ذلك بعض كلمات قليلة . وقد حدث هذا التطور فى المدة المحصورة بين نهاية القرن الثامن وأوائل القرن الرابع عشر . أنظر Dauzat, op. cit. 142 .

(٥) التاء المربوطة حكمها فى ذلك حكم الهاء المتطرفة كما يظهر من المثال المذكور فيما بعد .

محمدٌ ولدٌ مطيعٌ ؛ الأولاد يلعبون ؛ الهواء شديد ؛ انتظرته ساعة كاملة .

محمدْ ولدْ مطيعْ ؛ الأولاد بيلعبُ ؛ الهوَ شديد ، انتظرتُ ساعَ كامْلَ .

ومن هـذا القبيل كذلك حذف آخر الـكلمة التي يوقف عليها في عامية كثير من المناطق المصرية، كبعض مناطق بنى سويف والشرقية ورشيد وغيرها فيقال مثلا: « إِنت ياولَ » بدلا من « أنت يا ولد » « فين أخوكْ محو » بدلا من « أين أخوكْ محمود » ، « إدّيلُ خمْسأرو » بدلا من « أدّ له خمسة قروش »[1] .

وما حدث في اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله في كثير من اللغاتالأخرى . فمعظم الأصوات الساكنة المختتمة بهـا الـكلمات اللاتينية قد انقرضت في النطق الفرنسي أو تحولت إلى أصوات ساكنة أخرى أضعفمنها أو إلى أصوات لين .

أما الانقراض فلم يكد ينجو منه إلا القليل منأنواع هذه الأصوات (plumbum تحولت في الفرنسية إلى plomb التي ينطق بها plon بدون صوت الباء الأخير ؛ campus تحولت في الفرنسية إلى champ التي ينطق بها chan بدون صوت p الأخير ...[2]الخ) . ومن ذلك أيضاً حذف علامة الجمع s في النطقالفرنسي ، وبذلك أصبح المفرد وجمعه المختتم بصوت s سين في النطق ولا يختلفان إلا في الرسم .

وأما تحولها إلى أصوات ساكنة ضعيفة فقد حدث في كثير من الـكلمات المنتهية بأصوات مدوية sonores مثل أصوات v. d. b. إذ تحولت في الفرنسية القديمة

---

(١) سار على هذا الأسلوب كذلك بعض اللغات العربية الفصيحة ، كلغة طيء . وقد جرت عادة المؤلفين من العرب بتسميته قطعة طيء (أى قطع اللفظ قبل تمامه) . فـكان يقال مثلا في لغتهم « يا أبا الحـك » بدلا من يا أبا الحـكم . ولم يكن هذا مقصوراً لديهم على المنادى بل كان عاما في جميع الـكلمات .

(٢) V. Dauzat op. cit. 75, 76.

هـذه الأصوات القوية إلى أصوات ضعيفة صامتة sourds مثل أصوات f. t. p. (navem, grandem تحولتا فى الفرنسية القـديمة إلى nef, grant) . وقد جرت عادة العلماء أن يطلقوا على هذه الظاهرة اسم « توهين الصـوت السا كن الأخير » assourdissement des consonnes sonores finales[١] .

وأما تحولها إلى أصوات لين فقد حدث على الأخص فى حرف اللام l المتطرفة (vocalisation de l final)[٢] .

هذا ، وقد أحدث سقوط الأصوات اللينة والسا كنة الواقعة فى أواخر الألفاظ انقلابا كبيراً فى عالم اللغات . فقد كان من آثاره انقراض « طريقة الإعراب » فى كثير من اللغات التى كانت تسير عليها كالعربية واللاتينية وما إليهما[٣] .

٢ — ووقوع الصوت فى وسط الـكلمة يعرضه كذلك لـكثير من صـنوف التطور والانحراف .

فن ذلك ما حـدث فى اللغة العربية بصدد الهمزة السا كنة الواقعة فى وسط الثلاثى . فقد تحولت إلى ألف لينة فى عامية المصريين وغيرهم (فيقال : راس، فاس، فال ، ضانى ... ، بدلا من : رأس ، فأس ، فأل ، ضأن ... الخ) .

---

(١) حدث مثل ذلك أيضا فى الألمانية الحديثة إذ تحول فيها مثلا grob, tod الى Grop, tot . انظر Dauzat op. cit 75 .

(٢) حدث ذلك فى الفرنسية وفى البروفنسية حوالى القرن الثانى عشر الميلادى V. Dauzat op. cit 75 .

(٣) « طريقة الإعراب » هى الطريقة التى تعتمد فى بيان نوع الـكلمة ووظيفتها فى الجملة على ما يلحق آخرها من أصوات . ولا يزال لهذه الطريقة آثار كثيرة فى بعض لغـات التخاطب كالألمانية وما إليها .

ومن هـذا القبيل كذلك ما حدث بصدد الياء والواو الساكنتين فى وسط الكلمة فى مثل عين ويوم . فقد تحولتا فى بعض المناطق المصرية وغيرها إلى صوتين من أصوات اللين : فأولها تحول إلى صوت يشبه صوت é فى اللغة الفرنسية (عين ، خيل ، بين ، زينب ... الخ) ؛ وثانيهما تحول إلى صوت يشبه صوت ô الفرنسى (يوم ، نوم ، فوز ، لوم ... الخ) .

ومن ذلك تحريك الحرف الساكن إذا وقع فى وسط كلمة ثلاثية فى كثير من لهجات البلاد العربية (عامية الشرقية ، وبعض عاميات الصعيد ، ولهجات القبائل العربية النازحة إلى مصر ، ولهجة العراق ... الخ) ؛ فيقال مثلا : إسِم ، رَسِم ، مَصِر ، جُرُن ، بَدِر ، فَحِل ، فِجِل ... الخ ، بدلا من اسْم ، رسْم ، مصْر ، جرْن ، فَحْل ، فِجْل ... الخ)[١] .

وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة من هـذا القبيل فى اللغات الهندية ـ الأوروبية .

فمن ذلك ما حدث بصدد صوت اللين القوى tonique الواقع قبيل آخر الكلمة ، وخاصة إذا كان حراً voyelle libre ، أى متبوعا بصوت ساكن واحد أو بصوتين من إحدى المجموعات الآتية : br, cr, dr, tr, . فقد تحول هذا الصوت فى معظم حالاته فى اللغات اللاتينية والجرمانية واليونانية القديمة إلى صوت لين مركب (diphtongue) . وأشد أصوات اللين اتجاها إلى هـذا التحول صوتان هما é, ó ؛ وأقل منهما ميلا إلى هذا التحول صوتا u, i ، فإنه لم يكد يبدو فيهما هـذا الميل إلا فى اللغات الجرمانية

---

(١) هذه كذلك لهجة قديمة من لهجات بعض القبائل العربية .

(scinan تحولت فى الألمانية scheinen وينطق بهـا chaînen ، وفى الانجليزية إلى shine وينطق بها chaîne)[١] .

ومن ذلك ما حدث للصوت الساكن الواقع بين صوتى لين . فموقعه هـذا قد أدى به أحياناً إلى السقوط وأحياناً إلى الإنحراف عن مخرجه الأصـلى والتحول إلى صوت آخر . فصوت الباء b قد تحول في لغـة التخاطب اللاتينية إلى صوت v (faba تحولت إلى fava)[٢] وصوت السين s قد تحول فى اللاتينية إلى راء r (arbosis تحول إلى arboris) . وصوت الدال d فى الكلمات اللاتينية قد تحول إلى ذال z فى البروفنسية[٣] وسقط فى الفرنسية والإسبانية :

(latin: videre;provençal : vezer; français: veoir, voir; espagnol : veer, ver)

وصوتا اللام والنون n, l الواقعان بين صوتى لين قد سقطا فى اللغة البرتغالية فى العصور الوسطى (p o pu_l u s تحول إلى povo ; rationem تحول إلى razoe ... الخ) .
والأصوات الصامتة (consonnes sourdes : p. t. k. . . , etc) الواقعة بين صوتى لين قد تحولت فى اللاتينية الحديثة حوالى القرن السادس إلى أصوات مدوية consonnes sonores قريبة منها (b. d. g. ... etc) . وإلى هذا الحد وقف تطور هذا النوع فى الإسبانية والبروفنسية . أما فى الفرنسية الحديثة فقد حدث تحول آخر إذ انقلب صوت الباء b إلى v وسقط صوتا الدال والجيم d, g ، كما يظهر ذلك من الأمثلة الآتية[٤] :

---

(١) ظهر هذا الميل كذلك فى بعض اللهجات العامية الإيطالية V. Dauzat op. cit. 70 .

(٢) لم يشذ عن ذلك إلا عدد يسير من الكلمات .

(٣) كان ينطق بصوت z فى البروفنسية كما ينطق بالذال العربية (th فى الإنجليزية) .

(٤) انظر فى هذا الموضوع – Dauzat, op. cit. 74, 75

latin : ripa, amata, securus.

esp. et prov. : ribera (riba) , amada, segur (o)

français ; rive , aimée ; sûr

٣ — ووقوع الصوت فى أول الكلمة يجعله كذلك عرضة للانحراف . فمن ذلك ما حدث فى بعض المفردات العربية المفتتحة بالهمزة ، إذ تحولت همزتها فى بعض اللهجات العامية إلى فاء أو واو (« أذن » تحولت فى عامية المصريين إلى «ودن» ، و « أين » تحولت إلى « فين » ، أو إلى « وين » فى عامية القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى عامية العراق والحجاز ؛ و « أدّى » تحولت فى بعض المواضع فى عامية المصريين إلى « ودّى » فيقال مثلا « وَدّاه المدرسة » بمعنى « أدى به إلى المدرسة » أى أوصله إليها)[(١)] .

٤ — وقد تتبادل الأصوات مواقعها فى الكلمة ويحل بعضها محل بعض ، فيتقدم المتأخر منها ويتأخر السابق . وتسمى هذه الظاهرة « بالنقل المكانى » (Metathèse) كما حدث فى abeuvrer, berbis إذ تحولا إلى abreuver, brebis ؛ وكما حدث فى الكلمة العربية « أرانب » إذ تحولت فى عامية القاهرة وغيرها إلى « أنارب » .

ثالثا — تناوب الأصوات وحلول بعضها محل بعض

وفيما عدا الحالات السابقة قد لوحظ أن الأصوات المتحدة النوع تتناوب ويحل بعضها محل بعض . وقد سجل الباحثون ظواهر كثيرة بهذا الصدد بعضها خاص بأصوات اللين وبعضها يتعلق بالأصوات الساكنة .

---

(١) ليس هذا مقصوراً على اللغات العامية ، بل يوجد له نظير فى بعض اللهجات العربية الفصحى. ففى لغة لأهل اليمن تبدل الهمزة واواً فى مثل « آتيته » . فيقال مثلا واتيته على الأمر مواتاة وهى المشهورة على ألسنة الناس .

١ — أما تناوب أصوات اللين فلم تكد تخلو منه لغة من اللغات الإنسانية .

ففي اللغة العربية حدث تناوب واسع النطاق بين أصوات اللين القصيرة (التى يرمز إليها بالفتحة والكسرة والضمة) . ويمثل هذا التناوب انقلابا من أهم الانقلابات التى اعتورت هذه اللغة . فقد كان من آثاره أن انحرفت أوزان الكلمات وانقلبت أشكالها رأساً على عقب ، حتى لا نكاد نجد فى اللهجات العامية كلمة واحدة باقية على وزنها العربى القديم . فالفتحة قد استبدل بها الضمة أحياناً والكسرة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يَعوم ، يَسجد ، يَسمع ، عَثَر ، خَلَص ، سَكَت ، عِند ، كَبير ، ألكتاب ... الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : يُعُوم ، يُسجد ، يِسمع ، عِثِر أو عُثُر ، خِلِص أوخُلُص ، سِكِت أو سُكُت ، عَند ، كِبير ، إلكتاب . . . الخ) . والكسرة قد استبدل بها الضمة أحيانا والفتحة فى كثير من الأحوال (فبدلا من : يلطِم ، يضرِب ، يسرِق . . . الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : يلطُم ، يضرَب ، يسرَأ . . . الخ) . والضمة قد استبدل بها الفتحة أحيانا والكسرة فى معظم الحالات (فبدلا من مُحمد ، ثُعبان ، أُنثى ، عُثة ، يقتُل ، يذُم ، ظُفُر . . . الخ ؛ يقال فى عامية المصريين : مَحمد ، تِعبان ، إنتاية ، عِتة ، يئتِل ، يزِم ، ضِفر ... الخ) .

وحدث كذلك تناسخ فى أصوات اللين الطويلة نفسها ، وخاصة فى الألف اللينة إذا أميلت فى لغات بعض القبائل العربية القديمة ، وتمال الآن فى لهجات بعض القبائل العربية النازحة إلى مصر وفى بعض اللهجات فى بلاد الشرقية وغيرها .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الأوروبية .

فمن ذلك تحول أصوات اللين المركبة diphtongue إلى أصوات لين بسيطة

فى كثير من هـذه اللغات . فاللغة الفرنسية مثلا قد تحول فى نطقها معظم أصوات اللين المركبة إلى أصوات لين بسيطة ؛ وإن كانت لا تزال ترسم حسب حالتها القديمة (ai, ei, au. eau, eu...etc.) ؛ وعلى هذه الظاهرة يقع قسط كبير من التبعة فى صعوبة الرسم الفرنسى وعدم مطابقته للنطق[١] . — وماحدث فى اللغة الفرنسية بهذا الصدد حدث مثله فى سائر اللغات الأوروبية وخاصة الإسبانية والإيطالية والألمانية والإنجليزية[٢] .

ومن ذلك أيضاً تحول صوت a إلى صوت i فى عدد كبير من مفردات اللغة اليونانية وفى بعض مواطن فى اللغتين السلتية والفرنسية . وقد لوحظ أن هذا التحول يتم بالتدريج ، فينحرف صوت a إلى صوت آخر قريب منه ، وهـذا إلى ثالث ... وهكذا حتى يصل إلى i ؛ ولوحظ كذلك أنه يقطع لهذه الغاية أحد طريقين : طريق قصير وهو a, è, é ,i وطريق طويل وهو a, o, ô, ou, u, i . ولم يحدث مطلقا أن قطع فى تطوره سبيلا آخر غير هذين الطريقين ، أو تخطى مرحلة من المراحل المرسومة فى كليهما ، أو غيّر شيئاً فى ترتيبها السابق بيانه .

٢ — وأما تناسخ الأصوات الساكنة فقد حدث كذلك فى جميع اللغات الإنسانية. فكثير من الأصوات الساكنة فى اللغة العربية قد تناسخت فى اللهجات العامية وحل بعضها محل بعض . فالسين قد تحولت إلى صاد فى بعض المواطن («ساخن» تحول إلى « صاخن » فى عامية الشرقية وغيرها) ؛ والصاد إلى سين فى كثير من الألفاظ فى عامية القاهرة وغيرها (فبدلا من يصدق ، مصير ... الخ ، يقال يِسَدّق ، مِسير) ؛ والضاد إلى ظاء فى عامية المغرب وخاصة طرابلس ، وفى لهجات القبائل

---

(1) V. Dauzat op. cit. 64,65.

(2) V. Dauzat op. cit. 63,64.

العربية النازحة إلى مصر (فبدلا من : وضوء ، يضيع ، يضرب ، يضم ... الخ يقال : وظوء ، يظيع ، يظرب ، يظم ... الخ) ؛ والعين إلى نون فى بعض الكلمات فى لهجة العراقيين (فيقال مثلا : « ينطى » بدلا من « يعطى »)[١] ؛ واللام إلى ميم فى بعض الكلمات فى عامية القاهرة (« امبارح » بدلا من « البارحة »)[٢] ؛ والميم إلى نون أحيانا فى عامية المصريين (فيقال « فاطنة » بدلا من « فاطمة ») ... وهلم جرا .

وما حدث فى اللغة العربية بهذا الصدد حدث مثله فى اللغات الهندية ـ الأوروبية.

فمن ذلك تحول صوت w فى اللغة اللاتينية (وكان ينطق به كما ينطق به الآن فى الإنجليزية ، وكما ينطق بالواو فى العربية) إلى صوت v . فقد أخذ الصوت الأول، منذ مبدأ العصور الوسطى ، يدنو شيئاً فشيئاً من الصوت الأخير حتى استبدل هذا به فى كثير من الكلمات فى معظم اللغات المنشعبة عن اللاتينية[٣] .

ومن هـذا القبيل كذلك ما حدث فى صوت k المتبوع بصوت a فى الكلمات اللاتينية . فقد تحول فى اللغة الفرنسية فى معظم مواطنه إلى ch (canem, caballum تحولا فى الفرنسية إلى chien, cheval)[٤] .

ومن ذلك أيضاً ما حدث فى اللغات الجرمانية من تناوب بين المجموعات الثلاثة الآتية من الأصوات : b, d, g, p, t, k, f, th, kh, . فإن كل صوت من أصوات المجموعة الأولى قد تحول إلى ما يقابله فى الترتيب من أصوات المجموعة الثانية ؛

(١) تكاد تكون هذه الظاهرة مقصورة لديهم على العين المتبوعة بطاء . وعلى هذا النحو كانت تسير قديما لهجة هذيل .

(٢) هذه كذلك لغة حمير ، وقد جاء بها الحديث « ليس من امبر امصيام فى امسفر » .

(٣) V. Dauzat op. cit. 65, 66.

(٤) V. Delacroix, Langage et Pensée, 144.

وأصوات المجموعة الثانية تحولت بهذا النظام إلى أصوات الثالثة ؛ وأصوات الثالثة إلى أصوات الأولى . فبالموازنة بين الكلمات الجرمانية وأصولها فى اللغات الهندية — الأوروبية القديمة ونظائرها فى اللاتينية والإغريقية، يظهر أن الأصوات الآتية المدونة فى السطر الأول قد تحولت فى اللغات الجرمانية إلى الأصوات المدونة تحتها فى السطر الثانى :

b, d, g	p,	t,	k	f (ph)	th	kh
p, t, k	f (ph)	th	kh (gh)	b	d	g

كما يبدو ذلك من الأمثلة الآتية :

(Sanscrit)	(Latin)	(Anglais)
pitar	pater	father
	frater	brother
	dentis	touth
	genu	knee
	pedis	fout

وقد حدث فى بعض اللغات الجرمانية فى العصور الوسطى تطور ثان فى الأصوات الجديدة التى نجمت عن التطور الأول ، فتحولت هذه الأصوات نفسها إلى ما يقابلها فى الجدول السابق . وحدث فى اللغة الألمانية فى العصور الحديثة تطور ثالث فى الأصوات التى جاء بها التطور الثانى وفقاً لنفس الخطة المرسومة آنفاً ؛ وقد أدى ذلك إلى رجوع بعض هذه الأصوات إلى الأصل القديم الذى كانت عليه قبل التطور الأول . فالتاء مثلا t فى كلمة frater قد تحولت إلى ذال th فأصبحت bruther ؛ ثم تحولت هذه الذال إلى دال d فأصبحت bruder ؛ وهذه الدال قد تحولت فى الألمانية الحديثة إلى تاء فأصبحت bruter . وبذلك عاد هذا الصوت بعد هذه التطورات الثلاثة

إلى الأصل القديم الذى كان عليه قبل التطور الأول . وهذا هو ما اصطلح علماء اللغة من الألمان على تسميته « بالدورة الثلاثية »[١]

العوامل اللغوية المؤثرة فى تطور الدلالة :

وأماالعوامل اللغوية التى تؤثر فى تطور الدلالة، فيرجع أهمها كذلك إلى ثلاثة أمور:

(أحدها) عوامل تتعلق بمبلغ ارتباط الكلمة بفصيلتها ومبلغ وضوح دلالتها فى الذهن . وذلك أنه كلما كان مدلول الكلمة واضحا فى الأذهان قل تعرضه للتغير؛ وكلما كان مبهما غامضا مرنا كثر تقلبه وضعفت مقاومته لعوامل الانحراف . ويساعد على وضوح مدلول الكلمة عوامل كثيرة من أهمها أن تكون مرتبطة بفصيلة من الكلمات معروفة الأصل . ويعمل على إبهامها عوامل كثيرة من أهمها ألا تكون لها أسرة معروفة الأصل متداولة الاستعمال .

هذا ، وإن انعزال الكلمة ، أى عدم اتصالها بأسرة معروفة ، لايقف أثره عند تعريض مدلولها للانحراف عن وضعه الأصلى على الوجه الذى سبق شرحه ، بل كثيرا مايعرضها هى نفسها للفناء .

فما أشبه الكلمات بأفراد الحيوانات الاجتماعية : يظل الواحد منها قويا منيع الجانب ماندمج فى أفراد قطيعه وقوى تضامنه معه؛ ويتعرض للأذى والهلاك كلما انعزل عنه أو وهنت العلاقات التى تربطه به . ـ ولهذا السبب كادت تنقرض من لغة التخاطب الفرنسية كلمات Besicles; binocle; missive; visage, miroir وحل محل كل منها كلمة معروفة الاشتقاق قوية الصلة بأفراد أسرتها lunettes, lorgnon, lettre, figure, glace

(وثانيها) عوامل تتعلق بأصوات الكلمة . فثبات أصوات الكلمة يساعد على ثبات معناها ، وتغيرها يذلل أحيانا السبيل إلى تغيره . وذلك أن صلتها بالأسرة التى

---

(١) V. Dauzat 66-69.

تنتمى إليها وبالأصل المشتقة منه تظل وثيقة وواضحة فى الذهن ما دامت محتفظة بصورتها الصوتية ؛ وقوة هـذه الصلة تساعد على ثبات مدلولها . على حين أن تغير صورتها الصوتية يضعف صلتها فى الأذهان بأصلها وأسرتها ويبعدها عنهما ؛ وهـذا يجعل معناها عرضة للتغير والانحراف . فالوصف اللاتينى vivus ظل محتفظا بمعناه الأصلى (الحى ، ضد الميت) طوال المدة التى احتفظ فيها بأصوات بنيته ؛ وذلك لقوة ارتباطه عن طريق هذه البنية بأفراد أسرته vivere, vita...etc. . ولـكنه لم يلبث بعـد أن تغيرت صورته الصوتية فى الفرنسية إلى vif أن أخذ ينحرف شيئاً فشيئاً عن مدلوله القديم ، حتى بعد عنه ، وأصبح يدل الآن على الوصف بالقوة والحدة والنشاط . وذلك لأن تغير صورته الصوتية قد باعد ما بينه وبين أفراد أسرته (vivre, vivant ... etc.) ، فعرض مدلوله لهذا الانحراف . ومن هذا القبيل كذلك كلمة sage ؛ فإن انحراف صورتها الصوتية إلى هذا الوضع قد عزلها عن أفراد فصيلتها(savoir, savant ... etc.) وعرّض مدلولها للتغير ، فانحرف من معنى العالم (ضد الجاهل) إلى معنى الهادئ المطيع .

(وثالثها) عوامل تتعلق بالقواعد . فقد تذلل قواعد اللغة نفسها السبيل إلى تغير مدلول الـكلمة ، وتساعد على توجيهه وجهة خاصة . فتذكير كلمة « ولد » مثلا فى العربية (ولد صغير) ، قد جعل معناها يرتبط فى الذهن بالمذكر ، ولذلك أخذ مدلولها يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع، حتى أصبحت لا تطلق فى كثير من اللهجات العامية إلا على الولد من الذكور . وكذلك كلمة homo فى اللاتينية . فقد كانت تطلق فى الأصل على الإنسان رجلا كان أم امرأة ؛ ولـكن تذكيرها ربط مدلولها فى الذهن بنوع الذكور ، فأخذ يدنو شيئاً فشيئاً من هذا النوع حتى أصبحت فى كثير من اللغات المنشعبة عن اللاتينية لا تطلق إلا على الرجال .

(٧) خلاصة هذا الفصل

مما تقدم فى هذا الفصل تظهر لنا ثلاث حقائق هامة :

(إحداها) أن اللغة ـ شأنها فى ذلك شأن الظواهر الاجتماعية الأخرى ـ عرضة للتطور المطرد فى مختلف عناصرها : أصواتها وقواعدها ومتنها ودلالاتها ؛ وأن تطورها هذا لا يجرى تبعاً للأهواء والمصادفات ، أو وفقاً لإرادة الأفراد ، وإنما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدى إليه .

فليس فى قدرة الأفراد أن يقفوا تطور لغة ما ، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص ، أو يسيروا بها فى سبيل غير السبيل التى رسمتها لها سنن التطور الطبيعى الموضحة فى الفقرات السابقة . فمهما أجادوا فى وضع معجماتها ، وتحديد ألفاظها ومدلولاتها ، وضبط أصواتها وقواعدها ... ومهما أجهدوا أنفسهم فى إتقان تعليمها للأطفال قراءة وكتابة ونطقا ، وفى وضع طرق ثابتة سليمة يسير عليها المعلمون بهذا الصدد ، ومهما بذلوا من قوة فى محاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ، فإنها لاتلبث أن تحطم هذه الأغلال ، وتفلت من هـذه القيود ، وتسير فى السبيل التى تريدها على السير فيها سنن التطور والارتقاء الطبيعيين .

وإليك مثلا حالة اللغة العربية فى صدر الإسلام وما آلت إليه الآن فى لهجات المحادثة : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ومحاربة ما يطرأ

عليها من تحريف ، ومع أن هذه الجهود كانت تعتمد على دعامة من الدين ، فإن ذلك كله لم يحل دون تطورها فى الأصوات والقواعد والأساليب ودلالة المفردات إلى الصورة التى تتفق مع قوانين التطور اللغوى ، فأصبحت على الحالة التى هى عليها الآن فى اللغات العامية .

حقاً انه يمكن أحيانا التحكم فى لغة الكتابة والجمود بها زمنا طويلا على أصولها القديمة أو ما يقرب منها . ولكن لغة الكتابة التى تجمد بهذا الشكل لا تمثل تمثيلا صحيحا حالة الحياة اللغوية فى الأمة ، وتتسع كثيراً مسافة الخلف بينها وبين لغة المحادثة. لأن هذه اللغة الأخيرة فى تطور مطرد ، ولا تستطيع أية قوة إلى تعويق تطورها سبيلا . فلا تنفك تبعد عن لغة الكتابة الجامدة ، حتى تصبح كل منهما غريبة عن الأخرى ، ويصبح تعلم لغة الكتابة وتعليمها فى الأمة أشبه شىء بتعلم لغة أجنبية وتعليمها : وهذا هو ما كان عليه الحال بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال أيام أن كانت لغة الكتابة فيها هى اللاتينية ، وكانت لهجاتها المحلية مقصورة على شئون المحادثة ؛ وما عليه الحال الآن فى مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا بصدد العلاقة بين لهجات المحادثة واللغة العربية الفصحى المتخذة لغة كتابة فى هذه الممالك .

على أن ظاهرة كهذه لا تكاد تبدو إلا حيث تكون لغة المحادثة غير تامة التكون ولا كاملة النمو ؛ ولا تبقى إلا ما بقيت لغة المحادثة على هذه الحال . فإذا مابلغت هذه اللغة أشدها ، وتم تكونها ، واكتمل نموها ، واتسع متنها ، ووضحت دلالات مفرداتها ووجوه استخدامها ، وتشعبت فيها فنون القول، ودقت مناحى التعبير، وقويت على تأدية حقائق الآداب والعلوم ، أخذت تطارد لغة الكتابة ، وتستلبها وظائفها وظيفة وظيفة حتى تجردها منها جميعا ، فتصبح هى لغة الكتابة ، وتقذف

بلغة الكتابة القديمة فى زوايا اللغات الميتة . وهذا هو ما انتهى إليه أمر اللاتينية مع لغات المحادثة بفرنسا وإيطاليا ورومانيا وإسبانيا والبرتغال .

فما أشبه لغة الكتابة الجامدة فى حالات كهذه بجبل ثلج ثابت على سطح البحر، ولغات المحادثة المتطورة بالتيارات المائية التى تموج تحته . فمهما طال بقاء هذا الثلج ، فإن مصيره إلى التحطم والذوبان ؛ وحينئذ تطفو تلك التيارات إلى سطح البحر ، وتعيد إليه ما كان مستوراً تحت هذا الجبل الجامد من مظاهر النشاط والحياة .

(وثانيتها) أن أهم العوامل التى تؤثر فى تطور اللغة ترجع إلى الوشائج التى تربطها بحياة المجتمع وشئون الحياة الجمعية ، أى ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة . فجميع عوامل التطور التى ذكرناها فى الفقرات الثلاث الأولى[١] ، وقسم هام من العوامل التى ذكرناها فى الفقرة الرابعة[٢] مردها إلى الحياة الجمعية ، وما تمتاز به هذه الحياة من خصائص ، وتسير عليه من نظم ، وتسلكه من مناهج .

(وثالثتها) أن بعض العوامل التى تؤثر فى هذا التطور ترجع إلى أمور غير اجتماعية ، كالعوامل التى ذكرناها فى القسم الأخير من الفقرة الرابعة[٣] والتى ذكرناها فى الفقرتين الخامسة والسادسة[٤] .

حقاً إن الأهمية النسبية لهذه الطائفة من العوامل أقل كثيراً من أهمية العوامل الاجتماعية ؛ ولكنها فى ذاتها عميقة الأثر فى كثير من مظاهر التطور اللغوى .

وحقاً إنه من الممكن أن يرد بعضها إلى ظواهر الاجتماع ؛ ولكن قسطا غير يسير منها لا يمت بصلة ما إلى هذه الظواهر أو يمت إليها بصلات ضعيفة أو ممعنة فى البعد .

---

(١) انظر صفحات ٧ — ٤٥ .

(٢) انظر صفحات ٤٥ — ٤٧ .

(٣) انظر صفحات ٤٨ — ٥٤ .

(٤) انظر صفحات ٥٤ — ٧٧ .

الفصل الثانى

صراع اللغات[1]

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعى وراء الغلب والسيطرة . وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال . فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين فيسارع إلى القضاء على الآخر مستخدما فى ذلك وسائل القسوة والعنف ، ويتعقب فلوله فلا يكاد يبقى على أثر من آثاره . وتارة ترجح كفة أحدهما كذلك ، ولكنه يمهل الآخر ، وينتقص بالتدريج من قوته ونفوذه ، ويعمل على خضد شوكته شيئا فشيئا حتى يتم له النصر . وأحيانا تتكافأ قواهما أو تكاد فتظل الحرب بينهما سجالا ويظل كل منهما فى أثنائها محتفظا بشخصيته ومميزاته .

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان : أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله ؛ وثانيهما أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة فيتبادلا المنافع ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادى والثقافى .

---

(١) سيظهر لنا أن صراع اللغات بعضها مع بعض يؤدى إلى انقلابات وتطورات لغوية عميقة . فموضوع هذا الفصل يعد فى حقيقة الأمر متمما لموضوعات الفصل السابق ويتصل اتصالا وثيقا بالفقرة الثانية منه (انظر صفحات ٢١ــ٢٧).

وسنقف على دراسة كل عامل من هذين العاملين ونتائجه فقرة على حدتها ، ونضيف إليهما فقرة ثالثة نبين فيها أثر العوامل الأخرى فى صراع اللغات ؛ ثم نختم الفصل بفقرة رابعة نستخلص فيها ما تهدينا إليه هذه الدراسة بصدد قوانين الصراع اللغوى وأثر الظواهر الاجتماعية فى سيره .

(١) العامل الأول من عوامل الصراع اللغوى

نزوح عناصر أجنبية إلى البلد

قد يحدث على أثر فتح أو استعمار أو حرب أو هجرة . . . أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهله ، فتشتبك اللغتان فى صراع ينتهى إلى إحدى نتيجتين : فأحيانا تنتصر لغة منهما على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم أصيلهم ودخيلهم ؛ وأحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنباً لجنب .

ا — الحالات التى يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى ، وهى أن تتغلب إحدى اللغتين على الأخرى فتصبح لغة جميع السكان أصيلهم ودخيلهم ، فى حالتين :

(الحالة الأولى) أن يكون كلا الشعبين همجياً قليل الحضارة منحط الثقافة ، ويزيد عدد أفراد أحدهما عن عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . فى هذه الحالة تتغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب ، لغة الأصيل أم الدخيل . وذلك أنه عند انعدام النوع يتحكم الكم فى مصير الأمور . — ولكن هذه النتيجة لا تحدث

إلا إذا كان اللغتان المتصارعتان من شعبة لغوية واحدة من شعبتين متقاربتين[1] .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فمن ذلك أن الإنجليز السكسونيين ، حينما نزحوا من أواسط أوروبا إلى إنجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية التى كان يتكلم بهـا السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقى من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئا مذكورا بجانب عدد المغيرين ؛ وكلا الشعبين كان همجيا منحطا فى مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ؛ وكلتا اللغتين تنتمى إلى فصيلة اللغات الهندية الأوروبية . والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا على انجلترا فى منتصف القرن التاسع الميلادى واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث لغـة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان، أصيلهم ودخيلهم ، إنجليزيهم ونورمانديهم ، يتكلمون الإنجليزية السكسونية . وذلك لأن الإنجليز المغلوبين كانوا أكثر عـــدداً من النورمانديين الغالبين ؛ ولم يكن لأحد الشعبين إذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية ؛ وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية ـ الأوروبية .

وقد يحدث أحيانا فى هـذه الحالة أن تتغلب لغة على أخرى من غير فصيلتها . ولـكن هـذه الظاهرة نادرة الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها إلا بصعوبة وبعد أمد طويل . واللغة التى تنشأ من هذا التغلب ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصلية ، فتبعد بعداً كبيرا عن صورتها الأولى . فالبلغاريون ، وهم من أصل فينوانى Finois ، حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقالبة (السلافيون Slaves) ، أخذت لغتهم تنهزم شيئا

---

(١) انظر فى فصائل اللغات الفصل الثالث من كتابنا « علم اللغة » صفحات ١١٣ ـ ١٣٧ (الطبعة الثانية) .

فشيئا أمام لغة هـذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان صقلبي . وذلك لأن عدد البلغاريين لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد الصقالبة الممتزجين بهم ؛ وكلتا الفئتين كانت إذ ذاك همجية منحطة فى مستوى حضارتها ومبلغ ثقافتها . وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف اللغتين فى الفصيلة . فلغة البلغاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية ، على حين أن اللغات الصقلبية من الفصيلة الهندية الأوروبية . ولكن هذا التغلب لم يتم إلا بصعوبة وبعد أمد طويل وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرفة عن مواضعها فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها ، فبعدت بعداً كبيراً عن صورتها القديمة . فالبلغارية الحديثة هى أكثر اللهجات الصقلبية تحريفا وبعدا عن أصولها الأولى .

(الحالة الثانية) أن يكون الشعب الغالب أرقى من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأسا وأوسع نفوذا . فى هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وإن قل عدد أفراده عن أفراد الشعب المغلوب ؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفراده فى بلاد الشعب المغلوب ، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . فقد نجم عن فتوح الرومان فى وسط أوروبا وشرقيها أن تغلبت لغتهم اللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى Alpes Centrales والإليريا Illyrie ؛ مع أن الرومان المغيرين كانوا فى هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين . وقد نجم عن فتوح العرب فى آسيا وأفريقيا أن تغلبت لغتهم على كثير من اللغات

السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية[1] والكوشيتية[2] ؛ فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة فى معظم مناطق شبه الجزيرة العربية ، وفى مصر والسودان وشمال أفريقيا وفى جزء كبير من قسمها الشرقى المتاخم لبلاد الحبشة ؛ مع أن الجالية العربية فى هذه البلاد كان عددها أقل كثيراً من عدد السكان الأصليين .

* * *

وفى كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يصل أحياناً إلى أربعة قرون ، وقد يمتد إلى أكثر من ذلك . فالرومان قد أخضعوا بلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) فى القرن الأول الميلادى ؛ ولكن لم يتم النصر للغتهم اللاتينية على اللغة السلتية التى كان يتكلم بها أهل هذه البلاد إلا حوالى القرن الرابع الميلادى . ومع ما كان للعرب من قوة الشوكة ، ورقى اللغة ، واتساع الحضارة ، وحماية الدين ، وسطوة الغالب ، لم يتم النصر للغتهم على القبطية والبربرية إلا بعد أمد طويل . على أن اللغة القبطية لا تزال مستخدمة فى كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية[1] ؛ واللغات البربرية لا تزال إلى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر المغربية .

* * *

(١) هى لغات السكان الأصليين لشمال أفريقيا (انظر ص ١١٨ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة ») . (٢) هى لغات طائفة من السكان الأصليين للقسم الشرقى من أفريقيا المحصور بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر (انظر صفحتى ١١٨ ، ١١٩ من الطبعة الثانية لكتابنا «علم اللغة») .

(٣) لقد ظل انتشار اللغة العربية بطيئاً فى مصر طوال القرن الهجرى الأول . وقبيل نهاية هذا القرن أى فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) وفى ولاية عبد الله بن عبدالملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين « فنسخت بالعربية وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية » (انظر الكندى ص٥٨ ، ٥٩) . وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية بمادتى « ديوان » و «قبط»: «أن الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية» ؛ وهذا هو الأصح . =

وغنى عن البيان أن انتصاراً لايتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف ، لايخرج المنتصر من معاركه على نفس الحالة التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى كثير من مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها .

ويختلف مبلغ هذا التأثر باختلاف الأحوال : فتكثر مظاهره كلما طال أمد احتكاك اللغتين وكان النزاع بينهما عنيفا والمقاومة قوية من جانب اللغة المقهورة ؛ وتقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع ، أو خفت وطأة النزاع ، أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة . فلطول الأمد الذى استغرقه الكفاح بين لغة الإنجليز السكسون بانجلترا ولغة الفاتحين من الفرنسيين النورمانديين (الذين أغاروا على بلاد الإنجليز فى القرن التاسع الميلادى واحتلوا معظم مناطق انجلترا كما سبقت الإشارة إلى ذلك) ، ولشدة المقاومة التى أبدتها اللغة النورماندية المقهورة ، خرجت اللغة المنتصرة (الإنجليزية) من هذا الصراع وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة ، واقتبست منها فضلا عن هذا مفردات أخرى جديدة . على حين أن لغة بلاد الجول La Gaule التى انتصرت

= وظل التحول من الكتابة باليونانية فى الدواوين والتحدث بالقبطية إلى الكتابة والتحدث بالعربيـة يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ؛ حتى إذا كان القرن الرابع كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية ؛ بدليل أن رجال الكنيسة أنفسهم اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية .

وليس معنى ذلك أن القبطية كانت قد انقرضت كل الانقراض فى هذا العصر . فالحقيقة أنها ظلت باقية فى ألسنة بعض المناطق مدة طويلة بعد ذلك ؛ بدليل مايذكره المقريزى من أن المأمون كان يتنقل فى ريف مصر ومعه مترجم ، وما يذكره المقدسى فى « أحسن التقاسيم » (ألفه حوالى سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحي مصر كانوا يتحدثون بالقبطية .

عليهـا اللغة اللاتينية لم تترك فى اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة[1] ؛ واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تـكد تترك أى أثر فى اللغة العربية الغالبة . وذلك لأن الصراع فى هذين المثالين ، على طول أمده ، لم يكن عنيفا ، ولم تلق فى أثنائه اللغتان الغالبتان (اللاتينية فى المثال الأول والعربيـة فى المثال الثانى) مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلتية فى المثال الأول والقبطية والبربرية فى المثال الثاني) .

وتختلف كذلك النواحى التى يبدو فيهـا تأثر اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعاً لاختلاف الأحوال التى تـكون عليها كلتا اللغتين فى أثناء اشتباكهما . ويبدو هذا التأثر بأوضح صورة فى النواحى التى تـكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة الغالبة. ولذلك تألف معظم المفردات التى أخذتها الإنجليزية (الغالبة) عن الفرنسية النورماندية (المغلوبة) من كلمات دالة على معان كلية وألفاظ تتصل بشئون المائدة والطهى والطعام . وذلك لأن النورماندية كانت غنية فى هاتين الطائفتين من المفردات ؛ على حين أن الإنجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر ؛ فعمدت إلى خصيمها المقهور واستلبته ما كان يعوزها قبل أن تجهز عليه . وإلى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهى وألوان الطعام يرجع السبب فى أسلوبها الغريب فى تسمية الحيوانات المأكولة اللحم . فـكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها فى الإنجليزية اسمان: اسم جرمانى الأصل يطلق على الحيوان مادام حيا (sheep, calf, ox, pig) واسم آخر فرنسى الأصل يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للغذاء mutton, veal, beef, pork

---

(١) على أن بعض هذه الكلمات كان قد انتقل إلى اللاتينية قبل غزو الرومان لبلاد الجول .

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) فتبعد بذلك فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى . ويبلغ بعدها هـذا أقصى درجاته إذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة الغالبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك[١] .

والألفاظ الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف فى أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها ، فتبعد فى جميع هـذه النواحى عن صورتها القديمة . وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشىء عن الصراع بين لغتين كتب لإحداهما النصر ، بل هى ظاهرة عامة تتحقق فى جميع الحالات التى يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك[٢] .

* * *

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها مراحل كثيرة تمتاز كل مرحلة منهـا بمظهر خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة . ففى المرحلة الأولى تقذفها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها ، فتوهن بذلك متنها الأصلى، وتجرده من كثير من مقوماته. ولـكن اللغة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الـكلمات : فيؤلف أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقا لقواعدهم المتعلقة بترتيب أجزاء الجملة وتصريف المفردات (السنتـكس والمورفولوچيا) ، وينطقون بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ؛ حتى أنهم ليستبدلون فى الـكلمات الدخيلة بالحروف التى لايوجد لها نظير

(١) انظر ماورد بصفحى ٨٣، ٨٤ بصدد البلغارية الحديثة .

(٢) انظر صفحتى ٢٦ ، ٢٧ .

لديهم حروفا قريبة منها من حروف لغتهم.وفى المرحلة التالية تتسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الـكلمات . فينطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج وبنفس الطريقة التى يسير عليها النطق فى اللغة الغالبة . فيزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولـكنها تظل طوال هـذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعـدها المتعلقة بترتيب أجزاء الجملة وتصريف المفردات (قواعد السنتـكس والمورفولوچيا) وفى مقاومة قواعداللغة الغالبة . فيركّب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفى المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً فتأخذ قواعد اللغة الغالبة فىالاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللغة المغلوبة . فالقواعد فى اللغة المغلوبة أشبه شىء بالقلعة التى تحتمى بها فلول الجيش المنهزم وتقاتل عنها حتى آخر رمق، والتى يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد.

ب — الحالات التى لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهى عدم تغلب إحدى اللغتين علىالأخرى وبقاؤهما معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما فى الفقرة السابقة .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الغابرة وفى العصر الحاضر . فاللغة اللاتينية لم تقو على اللغة الإغريقية ، مع أن الأولى كانت لغة الشعب الغالب ؛ وذلك لأن الإغريق ، مع خضوعهم للرومان ، كانوا أعرق منهم حضارة وأوسع ثقافة وأرقى لغة ؛ وقد سبق أن انهزام لغة الشعب المغلوب أمام لغة الشعبالغالب لايحدث إلا إذا كان الشعب الثانى أرقى من الشعب الأول فى جميع هذه الأمور[1] . ولهذه الأسباب

(١) انظر صفحة ٨٤ ، السطر العاشر وتوابعه .

نفسها لم تقو لغات الشعوب الجرمانية التى قوضت الأمبراطورية الرومانية الغربية فى فاتحة العصور الوسطى على التغلب على اللغة اللاتينية فى البلاد التى قهرتها بمناطق الجول La Gaule (فرنسا) وما إليها . واللغة اللاتينية لم تقو على التغلب على لغات أهل بريطانيا العظمى ، على الرغم من فتح الرومان لبلادهم واحتلالهم إياها نحو مائة وخمسين سنة ، وعلى الرغم من أن الشعب الغالب كان أرقى كثيراً من الشعب المغلوب فى حضارته وثقافته . وذلك لأن الجالية الرومانية فى الجزر البريطانية لم تكن شيئاً مذكوراً ولم تمتزج امتزاجا كافيا بأفراد الشعب المغلوب . وقد تقدم أن الغلب اللغوى لا يتم فى مثل هذه الحالات إلا إذا أقامت فى البلاد المقهورة جاليه يعتد بها من أفراد الشعب الغالب وتم الامتزاج بينها وبين أفراد الشعب الآخر[1] . واللغة العربية لم تقو على الانتصار على اللغة الفارسية ، على الرغم من فتح العرب لبلاد فارس وبقائها تحت سلطانهم أمداً طويلا . وذلك لأن الشعب العربى لم يكن إذ ذاك أرقى حضارة من الشعب الفارسى ، ولقلة عدد الجالية العربية بفارس وضعف امتزاجها بالسكان، ولانتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين (فالعربيـة من الفصيلة السامية والفارسية من الفصيلة الهندية ـ الأوروبية)[2] . واللغة العربيـة لم تقو على الانتصار على اللغات الإسبانية على الرغم من فتح العرب للأندلس وبقائها تحت سلطانهم نحو سبعة قرون . وذلك لانتماء العربية إلى فصيلة غير فصيلة اللغات الإسبانية ، ولعدم امتزاج الشعوب القوطية بالشعب العربى . واللغة التركية لم تقو على التغلب على لغة أية أمة من الأمم التى كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية بأوروبا وآسيا وأفريقيا ، على الرغم من بقاء هذه الأمم

---

(١) انظر صفحة ٨٤ ، السطر العاشر وتوابعه .

(٢) تقدم أن انتماء اللغتين إلى فصيلتين مختلفتين يحول غالبا دون انتصار إحداهما على الأخرى (انظر صفحة ٨٤ ، السطر العاشر وتوابعه) .

مدة طويلة تحت سلطان تركيا . وذلك لاختلاف فصائل اللغات (فالتركية من الفصيلة الطورانية على حين أن لغات معظم الأمم التى كانت خاضعة لتركيا من الفصيلة السامية ـ الحامية، أو الهندية ـ الأوروبية) ، ولأن الترك كانوا أقل حضارة وثقافة من معظم الشعوب التى كانت تابعة لهم ، ولقلة عدد جاليتهم فى بلاد هذه الشعوب ، ولضعف امتزاجها بالسكان .

* * *

ولكن عدم تغلب إحدى اللغتين لايحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فقد تأثرت اللاتينية بالإغريقية فى أساليبها وآدابها واقتبست منها طائفة كبيرة من مفرداتها. وقد تركت اللغة العربية آثاراً قوية فى الإسبانية والبرتغالية ، وبخاصة فى المناطق التى كانت تسمى بالأندلس أو أندلوسيا Andalousie حيث دام سلطان العرب عدة قرون[1] . والصراع بين العربية الفارسية ، وإن لم ينته إلى تغلب إحداها ، قد ترك فى كل منهما آثاراً واضحة من الأخرى ، وبخاصة فى ناحية المفردات . والصراع بين التركية ولغات الأمم التى كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد ترك فى التركية آثاراً قوية من هذه اللغات وبخاصة من اللغة العربية ، وترك كذلك فى كثير من هذه اللغات آثاراً ظاهرة من التركية[2] .

---

(١) ويظهر أن الآثار التى تركتها العربية فى البرتغالية قد بلغت هى أيضاً درجة كبيرة من الضخامة ، حتى أن بعض الباحثين أفرد مؤلفات خاصة فى الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية . ومن هؤلاء الأستاذ راجى باسيل من أهل «ريو دى جنيرو» بالبرازيل . فقد طبع أربع كراسات عنوانها « معجم الكلمات البرتغالية المأخوذة من العربية » ، وقدم هذه الكراسات إلى جريدة الأهرام ، كما ورد بعددها الصادر فى ٤٤/٣/٢٩ .

(٢) قد بلغ هـذا التأثر مبلغا كبيراً فى بعض هذه اللغات : فلغة العراق فى العصر الحاضر مثلا قد أخذت عن التركية كثيراً من المفردات وبعض الأصوات التى لا نظير لها فى العربية =

جـ — نظرة عامة فى العامل الأول

وقصارى القول : متى اجتمع لغتان فى بلد واحد لا مناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء . غيرأن هذا التأثر يختلف فى مبلغه ومنهجه ونواحى ظهوره ونتائجه فى الحالة الأولى عنه فى الحالة الثانية .

فإذا كان الغلب كتب لإحداهما نراها تسيغ كل ماتأخذه من الأخرى مهما كثرت كميته ، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطا ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير فى بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلى ؛ على حين أن المغلوبة لا تقوى على مقاومة ما تقذفها به الغالبة من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئاً فشيئاً حتى تزول : كما كان شأن الإنجليزية الغالبة مع النورماندية المغلوبة.

وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى فتسيغه وتفيض عليه من حيويتها وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية موفورة القوى سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع العربية .

(٢) العامل الثانى من عوامل الصراع اللغوى

تجاور شعبين مختلفى اللغة

يتيح تجاور شعبين مختلفى اللغة فرصاً كثيرة لاحتكاك لغتيهما ، فتشتبكان فى

= (كالصوت الذى ينطق به بين الشين والجيم المعطشة فى مثل عربنجى) وطائفة من القواعد الصرفية كقواعد النسب والنعت والإضافة فى مثل : عربنجى (نسبة إلى العربة) ، خوش ولد (خوش كلمة فارسية الأصل معناها حسن) ، كتبخانة (دار الكتب) .

صراع ينتهى إلى واحدة من نفس النتيجتين اللتين ينتهى إليهما الصراع فى العامل الأول : فأحيانا تنتصر إحدى اللغتين على الأخرى وتحتل مناطقها ، فتصبح لغة مشتركة بين الشعبين ؛ وأحيانا لا تقوى واحدة منهما على الأخرى فتعيشان معاً جنباً لجنب .

ا — الحالات التى يحدث فيها تغلب إحدى اللغتين

وتحدث النتيجة الأولى وهى تغلب إحدى اللغتين على الأخرى فى حالتين :

(الحالة الأولى) إذا كانت نسبة النمو فى أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه ، وتضيق مساحته بهم ذرعا ، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاورله، وتكثر تبعاً لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين . وفى هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له ؛ على شريطة ألا يقل عن أهلها فى حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى من أهلها فى هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ . وأكثرها دلالة بهذا الصدد ماكان من أمر اللغة الألمانية . فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوروبا الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى(١) .

(الحالة الثانية) إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين فى الشعب المجاور له . وفى هذه

---

(١) ترجع بعض مظاهر هذا التغلب اللغوى إلى الغارات التى شنها الجرمان قديما على هذه المناطق ، أى إلى أمور تتصل بالعامل الأول لا بهذا العامل . فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التى تم فيها تغلب اللغة الألمانية فى صورة سلمية تحت تأثير الجوار وتكاثف السكان .

الحالة تتغلب لغة الشعب القوى النفوذ ؛ على شريطة ألا يقل عن الآخر فى حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه فى هذه الأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى مختلف مراحل التاريخ . فلغة الباسك[١] قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية فى المناطق التى تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين وأمام اللغة الإسبانية فى المناطق التى تغلغل فيها نفوذ الإسبانيين ، حتى كادت تنقرض فى كلتيهما . — واللهجات السلتية التى كان يتكلم بها معظم السكان بإيرلندا وويلز واسكتلندا قد أخذت تنهزم أمام اللغة الإنجليزية منذ أن تغلغل نفوذ انجلترا فى هذه البلاد ، حتى زالت من لغة الأدب والكتابة ، وكادت تنقرض انقراضا تاما من لغة الحديث . وهكذا كان مصير اللهجة السلتية التى بقيت بمقاطعة البريتون Bretagne (فى القسم الغربى من فرنسا على سواحل الاطلانطيق)؛ فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا فى هذه المقاطعة ، حتى لم يبق لها إلا آثار ضئيلة فى لغة الحديث بين الأميين من الشيوخ[٢] . — واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا ؛ فأصبحت الآن

---

(١) لغة الباسك Baspue أو الاسكارا Euskara ، يتكلم بها الباسكيون ، وهم شعب يقطن منطقة البرانس الغربية فى العدوتين الإسبانية والفرنسية (انظر ص ١٢٤ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشىء من استقلالها الذاتى حتى عام ١٤٩١ (فى عهد شارل الثامن) . ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسى. ولكن لم يتم ضمها إلى فرنسا إلا عام ١٥٣٢ فى عهد فرنسوا الأول . وقد انقرضت السلتية فى هذه المقاطعة انقراضا تاما من لغة الكتابة والأدب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر. وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم . وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت عدة أشهر متنقلا فى بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة إلا من عدد قليل من الشيوخ الأميين . وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه إلا فيما بينهم . أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية ؛ ولكن ينال كلماتها وتراكيبها وأساليبها فى ألسنتهم كثير من التحريف .

لغة الحديث والكتابة لجميع سكان « والونيا » Wallonie ببلجيكا[1] ولنحو ٢٢ ٪ من سكان سويسرا . — واللغة الإيطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٣ و ٥ ٪ من سكان هذه الجمهورية .

وعلى هذا الأساس نفسه تتغلب فى المملكة الواحدة لغة المقاطعة التى تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ . فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) فى مقاطعة « والونيا » ذات اللسان الفرنسى ، ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان فى هذه المملكة ، أخذت اللغة الفرنسية تتغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالى من بلجيكا المسمى « فلاندر »)[2] وتنتقصها من أطرافها . — ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) فى القسم الناطق بالألمانية ، ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبية الساحقة (يتكلم الألمانية فى سويسرا نحو ٧٠ ٪ من أهلها) ، أخذت اللغة الألمانية تطغى على ألسنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . — وقد أخذت لغة قريش قبيل الإسلام تتغلب على اللغات المضرية الأخرى ؛ لما كانت تتمتع به من سلطان أدبى ، ويستأثر به أهلها من نفوذ دينى وسياسى .

* * *

---

(١) وهو القسم الجنوبى من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتية ولاتينية . على حين أن القسم الشمالى المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون اللغة الفلامندية Flamande التى يتألف منها ومن اللهجات الهولندية فرع اللغات النيرلاندية Néerlandaises وهو أحد فروع اللغات الجرمانية الغربية (انظر آخر ص ١١٥ وأول ص ١١٦ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر التعليق السابق .

وفى كلتا الحالتين السابقتين لايتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يبلغ أحيانا بضعة قرون[١] . فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق ، ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائى . ــ والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون Bretagne) قد نشب منذ عدة قرون ؛ ومع ذلك لا يزال كثير من شيوخ البريتون فى العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان[٢] . ــ ولا تزال اللهجة السلتية لغة محادثة بين عامة الإيرلنديين فى العصر الحاضر ، مع أن تغلب الإنجليزية عليها قد بدأ فى هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . ــ وقد أخذت لغة قريش تطغى على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلى ؛ ومع ذلك ظلت هذه اللغات حية فى كثير من المواطن إلى أواخر العصر العباسى .

* * *

وغنى عن البيان أن انتصاراً لايتم إلا بعد أمد طويل لايخرج المنتصر من معاركه على الحالة التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لاتخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى بعض مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى العامل الأول[٣] . غير أن تجرد العامل الذى نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة ، وحدوث نتائجه فى صورة سلمية متدرجة بطيئة ، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة الغالبة ويخفف من مبلغ تأثرها باللغة المغلوبة .

---

(١) تزيد عادة المدة التى يظهر فيها أثر هذا العامل عن المدة التى يظهر فيها أثر العامل السابق والتى أشرنا بصفحة ٨٥ .

(٢) انظر ص ٩٤ والتعليق الثانى بهذه الصفحة . (٣) انظر ص ٨٦ وتوابعها .

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ينالها بعض التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغويا) ، فتختلف بعض الاختلاف فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .

والكلمات الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف فى حروفها ومعانيها وأساليب نطقها ، فتبعد فى جميع هذه النواحى عن شكلها القديم .

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها نفس المراحل التى أشرنا إليها فى العامل الأول : فينفذ الانحلال أولا إلى مفرداتها ؛ ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ؛ ويتم الإجهاز عليها بالقضاء على قواعدها[1] .

ب — الحالات التى لا تقوى فيها إحدى اللغتين على التغلب

وأما النتيجة الثانية وهى عدم تغلب إحدى اللغتين المتجاورتين على الأخرى وبقاؤهما معاً جنباً لجنب فتحدث فيما عدا الحالتين المشار إليهما فى الفقرة السابقة .

ويدخل فى هذا الباب معظم العلاقات بين اللغات المتجاورة فى العصر الحاضر . فالجوار بين فرنسا وانجلترا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال لم يؤد إلى تغلب لغة شعب منها على لغة شعب آخر ؛ لأن احتكاك لغاتها لا ينطبق على حالة من الحالتين اللتين يحدث فيهما التغلب بالمجاورة . ـ ولهذا السبب نفسه لم يؤد الجوار بين الفارسية والعراقية والتركية والأفغانية إلى تغلب لغة منها على لغة أخرى . وكذلك شأن الإنجليزية فى الولايات المتحدة بأمريكا الشمالية مع الإسبانية المجاورة لها فى المكسيك؛

---

(١) انظر صفحتى ٨٨ ، ٨٩ .

وشأن البرتغالية التى يتكلم بها فى البرازيل مع الإسبانية التى يتكلم بها فى الجمهوريات المتاخمة للبرازيل بأمريكا الجنوبية (كولومبيا ، بيرو ، بوليفيا ، باراجواى ، أوروجواى ، الأرجنتين . . . الخ) ؛ وكذلك شأن الحبشية مع الصومالية . . . وهلم جراً .

* * *

غير أن عدم تغلب إحــدى اللغتين لا يحول دون تأثر كل منهما بالأخرى . فالإنجليزية الحديثة بإنجلترا والفرنسية الحديثة بفرنسا تتقارضان المفردات منــذ أن أتيح للشعبين المتجاورين فرص للاحتكاك وتبادل المنافع . وكذلك تفعل الفرنسية بفرنسا مع الألمانية بألمانيا[1] ومع أخواتها المجاورة لها فى الجنوب الشرقى والغربى بإيطاليا وإسبانيا والبرتغال . — وتجاور التركية والفارسـية ، وإن لم يؤد إلى تغلب إحداهما على الأخرى ، قد ترك فى التركية آثاراً واضحة من الفارسية وبخاصة فى المفردات ، وترك كذلك فى الفارسية بعض آثار من التركية . — وتجاور الفارسية والعراقية فى العصر الحاضر ، وإن لم ينته إلى تغلب لغوى ، قد نقل إلى كل منهما كثيراً من آثار الأخرى فى المفردات والقواعد والأساليب . — ومجاورة الجرمانية واللاتينية فى العصور القديمة ، وإن لم ينته إلى تغلب إحــداهما ، قد نقل إلى أولاهما

---

(١) انتقل إلى الألمانية الحديثة ، تحت تأثير جوارها لفرنسا ، كثير من المفردات الفرنسية ، لدرجة أزعجت أولى الأمر وحملتهم على التدخل لصد هذا التيار وإحلال مفردات ألمانية محل المفردات الفرنسية الدخيلة ، ولكن قسطاً كبيراً من جهودهم بهذا الصدد قد ذهب أدراج الرياح .

كثيراً من مفردات الثانية[١] وترك فى الثانية بعض آثار من الأولى[٢] .

ﺟ — نظرة عامة فى العامل الثانى

وقصارى القول : متى أتيح للغتين متجاورتين فرص للاحتكاك ، لا مناص من تأثر كل منهما بالأخرى ، سواء أتغلبت إحداهما أم كتب لكلتيهما البقاء . غير أن هذا التأثر يختلف فى الحالة الأولى عنه فى الحالة الثانية .

فاذا كان الفناء قد حق على إحداهما ، فإنها لاتقوى على مقاومة ماتقذفها به الثانية من مفردات وقواعد وأساليب ولا تكاد تسيغ ما تتجرعه منها ، فيتخمها ويضعف بنيتها ، فتخور قواها وتفنى أنسجتها الأصلية شيئافشيئا حتى تزول؛ على حين أن الغالبة تسيغ كل ماتأخذه من الأخرى، مهما كبرت كميته وعظم شأنه، فيستحيل إلى عناصر من نوع عناصرها ، فتزداد به قوة ونشاطا ، بدون أن تدع له مجالا للتأثير فى بنيتها أو تغيير تكوينها الأصلى : كما كان شأن الانجليزية والفرنسية الغالبتين مع اللهجات السلتية المغلوبة بأرلندا وويلز ومقاطعة البريتون[٣] .

وإذا كان البقاء قد كتب لكلتيهما ، تعمد كل منهما إلى ما تأخذه من الأخرى

---

(٢) كثير من المفردات الألمانية تبدو جرمانية خالصة ، ولكن يظهر عند البحث أنها مقتبسة فى الأصل من اللاتينية . فن ذلك مثلا : schreiben = يكتب ؛ lesen = يقرأ ؛ Katze = قط ؛ Pflanze = نبات . فانها على الرغم من ظاهرها الجرمانى مأخوذة من الكلمات اللاتينية : Seribere, Legere, Catta, Planta .

(٢) غير أن تأثر اللاتينية بالجرمانية كان فى حكم العدم قبل غارات الجرمان على الامبراطورية الرومانية الغربية فى فاتحة العصور الوسطى .

(٣) *لم تترك اللغات المغلوبة فى هذه الأمثلة أثراً مذكوراً فى اللغتين الغالبتين .*

فتسيغه وتقاوم آثاره الهادمة ، فتبقى كل منهما متميزة الشخصية ، موفورة القوى ، سليمة البناء : كما كان شأن الفارسية مع التركية ؛ والفرنسية مع الإيطالية والإسبانية والبرتغالية .

(٣) عوامل أخرى للاحتكاك اللغوى

هذا ، وفيما عدا العاملين السابقين ، توجد عوامل أخرى كثيرة تتيح الفرص للاحتكاك بين اللغات ، ولكنها أقل شأناً من هذين العاملين، وأضعف منهما أثراً ؛ إذ ليس منها ما ينجم عنه صراع جدى ، أو يؤدى إلى نتائج ذات بال .

ومن أهم هذه العوامل ما يلى :

١ — اشتباك شعبين مختلفى اللغة أو شعوب مختلفة اللغات فى حرب طويلة الأمد. وذلك أن طول الاحتكاك بين الشعوب المتحاربة ينقل إلى لغة كل شعب منها آثارا من لغات الشعوب الأخرى ، سواء فى ذلك لغات الحلفاء ولغات الأعداء . فاحتكاك الألمانية والفرنسية والإنجليزية فى الحرب العظمى قد نقل إلى كل لغة منها مفردات من اللغتين الأخريين . — و « حرب الثلاثين » التى نشبت بين حماة البروتستانتية وحماة الكاثوليكية ، وامتدت من سنة ١٦١٨ إلى سنة ١٦٤٨ ، أتاحت فرصاً كثيرة للاحتكاك بين الفرنسية والألمانية[١] فنقلت إلى كل منهما بعض مفردات من الأخرى. وحروب فرنسا مع إيطاليا قد نقلت إلى الفرنسية كثيراً من الكلمات المتعلقة بشئون الحرب والفنون الجميلة وما إلى ذلك من الأمور التى كانت اللغة الإيطالية أوسع ثروة فيها من اللغة الفرنسية ؛ ونقلت كذلك إلى الإيطالية عدداً غير يسير من الكلمات

---

(١) وذلك على الرغم من أن فرنسا لم تشترك اشتراكا صريحا إلا فى المرحلة الأخيرة من هذه الحرب (من سنة ١٦٣٥ إلى سنة ١٦٤٨) .

الفرنسية . ــ والحروب الصليبية قد نقلت إلى كثير من اللغات الأوروبية ، وبخاصة إلى اللغة الفرنسية ، كثيراً من مفردات اللغة العربيــة ، ونقلت كذلك إلى بعض لهجات الأمم العربية بعض كلمات أوروبية .

٢ — توثق العلاقات التجارية بين شعبين مختلفى اللغة . وذلك أن منتجات كل شعب تحمل معها أسماءها الأصــلية ، فلا تلبث أن تنتشر بين أفراد الشعب الآخر وتمتزج بمتن لغته ؛ وكثرة الاحتكاك التجارى بين أفراد الشعبين ينقل إلى لغة كل منهما آثاراً من اللغة الأخرى .

٣ — توثق العلاقات الثقافية بين شعبين مختلفى اللغة . فإن ذلك ينقل إلى لغة كل منهما ، وبخاصة إلى لغة الـكتابة ، آثاراً كثيرة من الأخرى . وهــذه الآثار لا تقف عنــد حدّ المفردات ، بل تتجاوزها غالباً إلى الأساليب . والأمثلة على ذلك كثيرة فى تاريخ الأمم الحاضرة والغابرة . فاللغة العربية فى العصر العباسى ، وبخاصة لغة الـكتابة ، قد انتقل إليها عن هذا الطريق كثيرمن آثار اللغتين الفارسية واليونانية . ولغة الـكتابة بمصر فى العصر الحاضر ، ســواء فى ذلك لغة العلوم ولغة الآداب ولغة الصحافة ، قد انتقل إليها عن هـــــذا الطريق كثير من آثار اللغات الأوروبية وبخاصة الإنجليزية والفرنسية .

* * *

غير أن علاقة هذه العوامل وما إليها بتطور اللغة وارتقائها أشد كثيرا من علاقتها بالصراع بين اللغات . فهى تتيح الفرص لاقتباس اللغات بعضها من بعض وتبادلها المفردات والأساليب ، بدون أن تحدث بينها صراعا جديا أو تحمل إحداها على محاولة التغلب على الأخرى . ولذلك عرضنا لبعض آثار هــذه العوامل فى أثناء كلامنا على تطور اللغة فى الفصل الأول من هذا الـكتاب[١] .

---

(١) انظر صفحات ٢١ ــ ٢٧ .

(٤) خلاصة هذا الفصل

هـذا ، والنتائج التى تهدينا إليها دراستنا لهذا الموضوع هى نفس النتائج التى انتهت إليها دراستنا لموضوع الفصل الأول :

١ — فقد ظهر لنا مما تقدم فى هذا الفصل أن الطريق التى يسير فيها الصراع اللغوى ، والخطط التى ينهجها ، والمدة التى يستغرقها ، والنتائج التى ينتهى إليهـا ، ومبلغ تأثر كلتا اللغتين المتصارعتين بالأخرى ، والنواحى التى يبدو فيها هـذا التأثر ، وما ينال عناصر كلتيهما من تغير وانحراف ، والمراحل التى تقطعها اللغـة الغالبة فى سبيل انتصارها والمغلوبة فى سبيل انقراضها ، ، وموقف كل منهما حيال الأخرى فى حالة تـكافؤ القوى . . . كل أولئك وما إليه لا يجرى تبعاً للأهواء والمصادفات ، ولا وفقا لإرادة الأفراد ؛ وإنما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، واضحة المعالم ، محققة الآثار ، لا يد لأحد على وقفها أو تغيير ما تؤدى إليه .

فليس فى قدرة الأفراد أن يغيروا شروى نقير فى المناهج أو فى النتائج التى رسمتها قوانين هذا الصراع . فمهما أجهد الشعب نفسه فى نشر لغته فى شعب آخر ، ومهما رغب فى القضاء على لغة هـذا الشعب أو إضعافها ، ومهما اتخذ فى سبيل ذلك من وسائل ، ومهما كان مؤيداً بسعة النفوذ وقوة السلطان ... ، فإنه لن يحدث أكثر ولا أقل مما تقضى به قوانين الصراع اللغوى .

وإليك مثلا حالة اللغة العربية مع لغات الشعوب التى خضعت لسلطان العرب .

فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت للقضاء على لغات هـذه الشعوب وإحلال العربية محلها ؛ وعلى الرغم مما كان للعرب حينئذ من قوة الشوكة ، ورقى اللغة ، واتساع الحضارة ؛ وعلى الرغم من أن هـذه الشعوب قد دانت لسلطانهم واعتنقت ديانتهم ؛ وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين الدين الإسلامى ولغة القرآن ... على الرغم من هذا كله فإن اللغة العربية لم يكتب لها النصر إلا فى المواطن التى تقضى قوانين الصراع اللغوى بانتصارها فيهـا ، ولم تستطع سبيلا إلى القضاء على لغات المواطن الأخرى .

٢ — وقد ظهر لنا مما تقدم فى هـذا الفصل أن أهم الأسباب التى تؤدى إلى الصراع اللغوى وأهم العوامل التى تؤثر فى سـيره ونتائجه ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة . فالفتح ، والاستعمار ، والحرب ، وهجرة السكان ، واحتكاك شعبين متجاورين ، وتوثق العلاقات التجارية أو الثقافية بين أمتين . . . وما إلى ذلك من الأمور التى تقدم أنها تثير الصراع بين اللغات ؛ وتقارب الشعبين فى درجة الحضارة والثقافة أو تباعدهما فيها ، وتغلغل النفوذ السياسى أو الاقتصادى لشعب ما فى شعب آخر ، وامتزاج جالية ما بسكان الشعب المقيمة فى بلاده ... وما إلى ذلك من العوامل التى تبين فيما سبق مبلغ أثرها فى سير الصراع اللغوى وفى نتائجه ؛ كل هؤلاء وأولئك مرده إلى ظواهر الاجتماع وشئون العمران .

٣ — غير أنه قد ظهر لنا كذلك أن بعض العوامل التى تؤثر فى هذا الصراع ترجع إلى أمور غير اجتماعية ؛ وذلك كعدد أفراد كل من الشعبين المشتبكين فى صراع لغوى ونسبته إلى عدد أفراد الشعب الآخر ، وتـكاثف السكان فى أحدهما أو تخلخله

بالنسبة إلى خصيمه ، وكاتفاق اللغتين المتصارعتين فى الفصيلة التى تنتميان إليهـا أو اختلافهما فيها .

حقاً إن آثار هذه العوامل فى الصراع اللغوى ليست شيئا مذكورا بجانب آثار العوامل الاجتماعية ، كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولـكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية نسبية ؛ فإن عليهـا تتوقف نواح كثيرة فى سير الصراع اللغوى وفى نتائجه .

وحقاً إنه من الممكن أن يرد معظم هذه الطائفة من العوامل بل جميعها إلى ظواهر الاجتماع . فتكاثف السكان أو تخلخلهم وانتماء اللغتين إلى فصيلة واحـدة أو إلى فصيلتين مختلفتين . . . كل ذلك يمكن أن يمـد هو نفسه نتيجة لأمور تتصل بالحياة الاجتماعية ، وشئون العمران ، ومبلغ الصلات بين الشعوب . ولـكن الآثار التى تنجم عن هذه الطائفة من العوامل فى الصراع اللغوى لا تتصل بظواهر الاجتماع إلا عن طريق غير مباشر ؛ فهى تنجم مباشرة عن أمور غير اجتماعية فى ذاتها ، وإن كان من الممكن رد هذه الأمور إلى ظواهر الاجتماع .

الفصل الثالث

تفرع اللغة الواحـــــدة

إلى لهجات ولغات[1]

يرجع السبب الرئيسى فى هذا التفرع إلى انتشار اللغة فى مناطق مختلفة واسعة، واستخدامها لدى جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس .

ولـكن هـذا السبب الرئيسى لايؤدى عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة ؛ بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدى إلى هذه النتيجة .

وتبدو هذه النتيجة فى صورتين : إحداهما انشعاب اللغة الواحدة إلى «لهجات محلية Dialectes locaux » يتكلم بكل لهجة منها منطقة خاصة من مناطق هذه اللغة؛ وثانيتهما انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية Dialectes sociaux » تتكلم بكل لهجة منها طبقة خاصة من طبقات السكان .

وسنقف الفقرة الأولى من هـذا الفصل على دراسة السبب الرئيسى فى التفرع وهو انتشار اللغة .

---

(١) من الواضح أن هذا التفرع مظهر هام من مظاهر التطور اللغوى . فموضوع هذا الفصل الثالث يعد فى الحقيقـة متمماً لموضوعات الفصل الأول . ولما كان الفصل الثانى نفسه يعالج بعض نواحي التطور اللغوى (انظر التعليق المدون بصفحة ٨١) ، لذلك يمكن أن تعد جميع فصول الـكتاب الثلاثة دراسة للتطور اللغوى من مختلف نواحيه .

ونقف الفقرة الثانية على دراسة العوامل التى يتيحها السبب الرئيسى السابق، وتؤدى عن طريق مباشر إلى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

ونقف الفقرتين الثالثة والرابعة على دراسة الصورة الأولى من صور هذا التفرع وهى التى تتمثل فى انشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات محلية » ؛ والفقرتين الخامسة والسادسة على دراسة الصورة الثانية من صور هذا التفرع وهي التىتتمثل فىانشعاب اللغة الواحدة إلى « لهجات اجتماعية » .

ثم نختم الفصل بفقرة سابعة نستخلص فيها ما تهدينا إليه هـذه الدراسة بصدد قوانين التفرع وأثر الظواهر الاجتماعية فى سيره .

(١) انتشار اللغة وأسبابه

وأثره الرئيسى فى التفرع اللغوى

تختلف اللغات الإنسانية فى مبلغ انتشارها اختلافا كبيراً، فمنها ماتتاح له فرص مواتية ، فينتشر فى مناطق واسعة من الأرض ، ويتكلم به عدد كبير من الأمم الإنسانية ؛ كما حدث للاتينية والعربيـة فى العصور القديمة والوسطى ، وللإنجليزية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية والألمانية فى العصور الحديثة . ومنها ما تسد أمامه المسالك ، فيقضى عليه أن يظل حبيسا على منطقة ضيقة من الأرض وفئة قليلة من الناس ؛ كما حدث للأينو[١] والبسكية[٢] والليتونية[٣] . ومنها ما يكون حاله وسطا

(١) يتكلم بها الآن نحو عشرين ألفا من سكان جزر هوكادو وسكهالين وشيكوتو التابعة لليابان (انظر ص ١٢٢ رقم ٣ من الطبعة الثانية لـكتابنا « علم اللغة ») .

(٢) يتكلم بها الآن نحو ٨٠٠٠٠٠ من الباسكيين الذين يقطنون جبال البرانس الغربية فى العدوتين الفرنسية والإسبانية (انظر ص ١٢٤ رقم ١٢ من الطبعة الثانية لـكتابنا «علم اللغة»).

(٣) يتكلم بها سكان ليتونيا الذين يبلغ عددهم الآن نحـو مليونين (انظر ص ١١٦ رقم ٨ من الطبعة الثانية لـكتابنا « علم اللغة ») .

بين هذا وذاك فلا تتسع مناطقه كل السعة ولا تضيق كل الضيق ؛ كما هو شأن الحبشية والفارسية .

هذا ، ولانتشار اللغة أسباب كثيرة يرجع أهمها إلى ما يلى :

١ — أن تشتبك اللغة فى صراع مع لغة أو لغات أخرى ، وتقضى نواميس الصراع اللغوى المتقدم ذكرها فى الفصل السابق أن يكتب لها النصر ، فتحتل مناطق اللغة أو اللغات المقهورة ، فيتسع بذلك مدى انتشارها ، وتدخل أمم جديدة فى عداد الناطقين بها . كما حدث للاتينية فى العصور القديمة إذ تغلبت على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى والإليريا Illyrie ، فأصبحت لغة الحديث والكتابة فى منطقة واسعة فى القسم الجنوبى الغربى من أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على منطقة ضيقة فى وسط إيطاليا ، هى منطقة اللاتيوم Latium[١] . وكما حدث للغة العربيـة إذ تغلبت على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية ، حتى بلغ الآن عدد الناطقين بها نحو ٦٠ مليونا ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعـد أن كانوا قديما لايتجاوزون بضعة آلاف يقطنون منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من بلاد العرب[٢] . وكما حدث للألمانية إذ طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لها بأوروبا الوسطى (بألمانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو مائة مليون من سكان أوروبا ، بعد أن كانت قديما مقصورة على بعض المقاطعات الألمانية[٣] .

---

(١) انظر ص ٨٤ . (٢) انظر آخر صفحة ٨٤ وأول صفحة ٨٥ .
(٣) انظر ص ٩٣ .

٢ — أن ينتشر أفراد شعب ما ، على أثر هجرة أو استعمار ، فى مناطق جديدة بعيدة عن أوطانهم الأولى ، ويتكون من سلالاتهم بهذه المناطق أمة أوأمم متميزة كثيرة السكان ، فيتسع بذلك مدى انتشار لغتهم ، وتتعدد الجماعات الناطقة بها ، ويكثر أفرادها . والأمثلة على ذلك كثيرة فى العصور الحديثة . فقد نجم عن استعمار الإنجليز السكسون لأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا أنانتشرت الإنجليزية فى هذه المناطق المبعثرة ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو مئتى مليون موزعين على مختلف قارات الأرض ، بعد أن كانت قديما محصورة فى منطقة ضيقة من الجزر البريطانية[1] . ونجم عن الاستعمار الإسبانى فى الدنيا الجديدة أن أصبحت الإسبانية لغة بلاد المكسيك وجزر الفيليبين وجميع دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ماعدا البرازيل ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٧٠ مليونا ينتمون إلى نحو خمس عشرة أمة ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى الجنوب الغربى من أوروبا . ونجم عن الاستعمار البرتغالى فى الدنيا الجديدة وأفريقيا والأوقيانوسية أنأصبحت البرتغالية لغة سكان البرازيل بأمريكا الجنوبية وسكان المستعمرات البرتغالية بأفريقيا وجزر المحيط الهندى ، فبلغ عدد الناطقين بها نحو ٥٠ مليونا ينتمون إلى عدة أمم ، بعد أن كانت محصورة فى منطقة ضيقة فى بلاد البرتغال نفسها .

٣ — أن يتاح لجماعة ما أسباب مواتية للنمو الطبيعى فى أوطانها الأصلية

---

(١) يتكلم كذلك فى اتحاد جنوب أفريقيا بلغة تسمى الأفريكانية ، وهى منحدرة من الهولاندية التى كان يتكلم بها الهولنديون ، وقد كانوا أول من أقام فى مستعمرة « الكاب » ، ومن اللغة الفرنسية التى كان يتحدث بها المهاجرون (الهوجنوت) الذين قدموا فيما بعد إلى الكاب . وتعد الأفريكانية إحدى اللغتين الرسميتين فى الاتحاد . أما الثانية فهى اللغة الإنجليزية. ويتخاطب بالأفريكانية معظم أهل جنوب أفريقيا بطلاقة .

نفسها ، فيأخذ عدد أفرادها وطوائفها فى الزيادة المطردة ، وتنشط حركة العمران فى بلادها ، فتكثر فيها المدن والقرى وتتعدد الأقاليم والمناطق ، فيتسع تبعاً لذلك نطاق لغتها ومدى انتشارها : كما حدث لليابانية والفرنسية والإيطالية . فبفضل هذا العامل بلغ عدد الناطقين باليابانية فى اليابان نفسها ما يزيد على سبعين مليونا[١] ؛ وبفضله كذلك ، مع مساعدة العاملين السابقين ، بلغ عدد الناطقين بالفرنسية نحو ٥٠ مليونا[٢] وبالإيطالية نحو ٤٥ مليونا[٣] .

* * *

هـذا ، ومتى انتشرت اللغة فى مناطق واسعة من الأرض تحت تأثير عامل من العوامل السابق ذكرها ، وتكلم بها جماعات كثيرة العدد وطوائف مختلفة من الناس، استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلا . فلا تلبث أن تنشعب إلى لهجات ، وتسلك كل لهجة من هـذه اللهجات فى سبيل تطورها منهجا يختلف عن منهج غيرها ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهـا وبين أخواتها حتى تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وبذلك يتولد عن اللغة الأولى فصيلة أو شعبة من اللغات يختلف أفرادها بعضها عن بعض فى كثير من الوجوه . ولـكنها تظل مع ذلك متفقة فى وجوه أخرى ، إذ يترك الأصل الأول فى كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى . وكثيراً ما يبقى الأصل الأول مدة ما لغة أدب

---

(١) يدل آخر تعداد رسمى قبيل الحرب الأخيرة على أن عدد الشعب اليابانى بلغ ٧٣،١١٤،٣٠٨ ، وأن عدد سكان الأمبراطورية اليابانية قد بلغ ١٠٥،٢٢٦،١٠١ .

(٢) منهم بفرنسا نحو ٤١ مليونا والباقى ببلجيكا وسويسرا وكندا والمستعمرات الفرنسية .

(٣) معظمهم بإيطاليا نفسها والباقى بسويسرا والمستعمرات الإيطالية .

وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منه ، ولكنه لا يلبث أن يتنحى عن ذلك بعد أن يكتمل نمو هذه اللغات .

ولهذا القانون خضعت اللغات الإنسانية من مبدأ نشأتها إلى العصر الحاضر .

فاللغة الهندية ـ الأوروبية الأولى قد انشعبت فى ضحى الإنسانية إلى مجموعات كثيرة ، وكل مجموعة منها تفرعت إلى عدة طوائف ، وكل طائفة انقسمت إلى شُعب وكل شعبة إلى لغات . . . وهكذا دواليك[١] . ومثل هـذا حدث للغة السامية ـ الحامية الأولى[٢] ولجميع الفصائل اللغوية الأخرى[٣] .

وقد شهدت عصورنا التاريخية نفسها كثيراً من آثار هـذا القانون . فاللغة اللاتينية ، وهى إحدى لغات الفرع الإيطالى المنشعب من الهندية ـ الأوروبية ، قد أخذت هى نفسها ، فى أواخر العصور القديمة وفى العصور الوسطى ، تنشعب إلى عدد كبير من اللهجات ، وأخذت كل لهجة من هـذه اللهجات تسلك فى سبيل تطورها منهجاً يختلف عن منهج أخواتها ، حتى انفصلت عنها انفصالا تاما ، وأصبحت لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها . وقد بقيت اللاتينية مدة ما لغة أدب وكتابة بين الشعوب الناطقة باللغات المتفرعة منها (الفرنسية ، الإيطالية ، الإسبانية ، البرتغالية ، لغة رومانيا ...) ؛ ولكنها لم تلبث أن تنحت عن ذلك بعد أن اكتمل نمو هذه اللغات .

والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هـذا القانون . فلانتشار اللغة الإسبانية فى مناطق واسعة مبعثرة ، ولاختلاف الطوائف المتكلمة بها ، أخذت

---

(١) انظر صفحات ١١٤ ــ ١١٧ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .
(٢) انظر صفحات ١١٧ ــ ١٢٠ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .
(٣) انظر صفحات ١٢١ ــ ١٢٨ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .

تفقد وحدتها ، فانشعب عنها فى أمريكا الجنوبية لهجات كثيرة تختلف كل منها عن الإسبانية الأصلية اختلافا غير يسير فى كلماتها وأصواتها ؛ بل إن بعض هذه اللهجات أخذ يختلف عن الإسبانية الأصلية فى القواعد نفسها[١] . ومثل هـذا حدث بين البرتغالية فى البرتغال والبرتغالية فى البرازيل . فقد وصل الخلاف بينهما إلى القواعد نفسها ، بل إلى شـكل الرسم كذلك[٢] . وهـذا هو ما يحدث الآن للإنجليزية والألمانية . فقد أخذت انجليزية الولايات المتحدة بأمريكا تختلف عن انجليزية الجزر البريطانية فى كثير من المفردات وأساليب النطق[٣] ؛ وأخذت ألمانية سويسرا تبتعد عن أصلها ويزداد تأثرها بجارتها الفرنسية ، حتى توشك أن تـكون لهجة متميزة عن ألمانية الألمان . وقد اتسعت مسافة الخلف بين اللهجات المنشعبة عن العربية حتى أصبح بعضها غريباً على بعض : فلهجة العراق فى العصر الحاضر مثلا لا يكاد يفهمها

---

(١) وقد ألف بعض العلماء كتبا مستقلة فى بعض هذه اللهجات كـكتاب الأستاذ لنز Lenz فى قواعد لهجة شيلى .

(٢) جاء بجريدة الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢٩–٣–١٩٤٤ بصدد اتفاق هجائى لغوى بين البرتغال والبرازيل ما يلى :

« تلقت وزارة الخارجيـة من معالى محمود فخرى باشا وزير مصر المفوض فى إسبانيا والبرتغال تقريرا عن اتفاق هجائى لغوى عقـد أخيراً بين الحـكومتين البرتغالية والبرازيلية الغرض الأساسى منه تنظيم اللغة البرتغالية وتنقيحها ، وذلك بتوحيد شكلها الهجائى ونطق كلماتها . وكان الوصول إلى وضع هـذا الاتفاق بفضل مساعى كبار الـكتاب فى البلدين . وهـذا أول اتفاق من نوعه يعزز الفـكرة التى ترمى إلى توحيد الشعوب التى تتكلم لغة واحدة . وختم الوزير المفوض تقريره بالإعراب عن أمنية هى أن تعمل البلاد العربيـة على تنظيم لغتنا وتوحيد اصطلاحاتها وتعميم نطقها بين مختلف الشعوب الناطقة بالضاد .

(٣) حتى أن الإنجليز ليسخرون من اللهجة الأمريكية ، كما يسخر الأمريكان من لهجة الانجليز؛ ولا يكتم كل منهم سخريته هذه حتى فى أحرج الأوقات وأدعاها إلى نسيان الفروق . يدل على ذلك ما جاء فى نشرة وزعتها القيادة الأمريكية على قواتها الموجودة فى بريطانيا فى أثناء الحرب الأخيرة ، إذ تقول مخاطبة أفراد هذه القوات : « ولا تسخر باللهجة البريطانية ، لأن لهجتك قد تـكون مثار سخرهم؛ ولـكنهم أكثر أدبا من أن يظهروا لك ذلك» . (جريدة الأهرام بتاريخ ١٣–٧–١٩٤٢).

المصرى . غير أنه قد خفف من أثر هذا الانقسام اللغوى بقاءالعربية الأولى بين هذه الشعوب لغة أدب وكتابة ودين .

(٢) العوامل المباشرة فى تفرع اللغة

فالسبب الرئيسى فى تفرع اللغة إلى لهجات ولغات هو سعة انتشارها . غير أن هذا السبب لايؤدى إلى ذلك بشكل مباشر ، بل يتيح الفرص لظهور عوامل أخرى تؤدى إلى هذه النتيجة . وباستقراء هذه العوامل فى الماضى والحاضر يظهر أن أهمها يرجع إلى الطوائف الآتية :

١ — عوامل اجتماعية سياسية تتعلق باستقلال المناطق التى انتشرت فيها اللغة بعضها عن بعض وضعف السلطان المركزى الذى كان يجمعها ويوثق ما بينها من علاقات . وذلك أن اتساع الدولة ، وكثرة المناطق التابعة لها ، واختلاف الشعوب الخاضعة لنفوذها ... كل ذلك يؤدى غالباً إلى ضعف سلطانها المركزى ، وتفككها من الناحية السياسية ، وانقسامها إلى دويلات أو دول مستقل بعضها عن بعض . وغنى عن البيان أن انفصام الوحدة السياسية يؤدى إلى انفصام الوحدة الفكرية واللغوية .

٢ — عوامل اجتماعية نفسية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ومبلغ الثقافة ومناحى التفكير والوجدان. فمن الواضح أن الاختلاف فى هذة الأمور يتردد صداه فى أداة التعبير .

٣ — عوامل جغرافية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى الجو وطبيعة البلاد وبيئتها وشكلها وموقعها ... وما إلىذلك ، وفيما يفصل كل منطقة منها

عن غيرها من جبال وأنهار وبحار وبحيرات . . . وهلم جرا . ـ فلا يخفى أن هـذه الفروق والفواصل الطبيعية تؤدى ، عاجلا أو آجلا ، إلى فروق وفواصل فى اللغات .

٤ — عوامل شعبية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى الأجناس والفصائل الإنسانية التى ينتمون إليها والأصول التى انحدروا منها . ـ فمن الواضح أن لهذه الفروق آثاراً بليغة فى تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

٥ — عوامل جسمية فيزيولوجية تتمثل فيما بين سكان المناطق المختلفة من فروق فى التكوين الطبيعى لأعضاء النطق[١] . ـ فمن المحال ، مع فروق كهذه ، أن تظل اللغة محتفظة بوحدتها الأولى أمداً طويلا .

* * *

فانقسام المتكلمين باللغة الواحدة تحت تأثير هـذه العوامل إلى جماعات متميزة ، واختلاف هـذه الجماعات بعضها عن بعض فى شئونها السياسية والاجتماعية ، وفى خواصها الشعبية والجسمية والنفسية ، وفيما يحيط بها من ظروف طبيعية وجغرافية ، كل ذلك وما إليه يوجه اللغـة عند كل جماعة منها وجهة تختلف عن وجهتها عنـد غيرها ، ويرسم لتطورها فى النواحى الصوتيـة والدلالية وغيرها منهجا يختلف عن منهج أخواتها ، فتتعدد مناهج التطور اللغوى حسب تعدد الجماعات ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بين اللهجات الناشئة عن هـذا التعدد ، حتى تصبح كل لهجة منها لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها .

* * *

---

(١) ترجع هذه الفروق إلى عوامل كثيرة منها العاملان الجغرافى والشعبى المشار إليهما آنفا تحت رقمى ٣ ، ٤ .

ويبدأ الخلاف بين هذه اللهجات من ناحيتين : إحداهما الناحية المتعلقة بالصوت، فتختلف الأصوات (الحروف) التى تتألف منها الكلمة الواحدة ، وتختلف طريقة النطق بها تبعاً لاختلاف اللهجات ؛ والأخرى الناحيــة المتعلقة بدلالة المفردات ، فتختلف معانى بعض الكلمات باختلاف الجماعات الناطقة بها .

أما القواعد La Grammaire سواء فى ذلك مايتعلق منها بالبنية (المورفولوجيا)[١] أو ما يتعلق منها بالتنظيم (السنتكس)[٢] ، فلا ينالها فى المبدأ كثير من التغيير . وإليك مثلا اللهجات العامية التى انشعبت عن العربية بالعراق والشام والحجاز واليمن ومصر وبلاد المغرب . . . ؛ فانه لا يوجد بينها إلا فروق ضئيلة فى نظام تكوين الجملة وتغيير البنية وقواعد الاشتقاق والجمع والتأنيث والوصف والنسب والتصغير ... وما إلى ذلك ؛ على حين أن مسافة الخلف بينها فى الناحيتين الصوتيــة والدلالية قد بلغت حدا جعل بعضها غريبا على بعض كما سبقت الإشارة إلى ذلك[٣] .

ولكن هــذه الوحدة فى القواعد لا تقوى على مقاومة عوامل التفريق إلا لأجل معلوم ؛ ثم تهن قواها وتستسلم لهذه العوامل فيصيبها منها ما أصاب الصوت والدلالة من قبل . وحينئذ تقوى وجوه الخلاف بين اللهجات ، وتبدأ مرحلة تحولها إلى لغات مستقلة ، ولا تنفك تذهب حثيثا فى هذا الطريق حتى تبلغ غايته .

غير أنه يبقى بها ، على الرغم من هذا كله ، وجوه شبه قريبة أو بعيدة فى أصول المفردات وبعض مظاهر القواعد العامة . وإليك مثلا طوائف اللغات الهندية ـ الأوربية: فعلى الرغم من استحكام ما بينها من حلقات الخلاف ، فإن الأصل الأول قد ترك فى

---

(١) انظر صفحة ٦ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .

(٢) انظر صفحتى ٦ ، ٧ من الطبعة الثانية لكتابنا « علم اللغة » .

(٣) انظر آخر ص ١١١ وأول ص ١١٢ .

كل منها آثاراً تنطق بما بينها من صلات قرابة وتشهد بتفرعها عن أرومة واحدة .

* * *

ومن هـذا يتبين أن اللغة لا تموت حتف أنفها . فما لم تصرعها لغـة أخرى على الوجوه التي تقدم شرحها في الفصل السابق ، لا يتطرق إليها الفناء . وخلودها هـذا يبدو في أحد مظهرين : فأحيانا تحتفظ بوحدتها ، وذلك إذا ظلت حبيسة على منطقة ضيقة وفئة قليلة ؛ وأحيانا تنشعب إلى لهجات ولغات ، وذلك إذا انتشرت في مساحات واسعة من الأرض ، وتـكلم بها طوائف مختلفة من الناس .

(٣) اللهجات المحلية ، وصراعها بعضها مع بعض

ونشأة لغة الدولة أو اللغة الفصحى أو لغة الـكتابة

يترتب على القانون السابق أن تختلف اللهجات في الأمة الواحدة تبعاً لاختلاف أقاليمها وما يحيط بكل إقليم منها من ظروف وما يمتاز به من خصائص . وقد جرت عادة علماء اللغة أن يطلقوا على هـــذا النوع من اللهجات اسم اللهجات المحلية Dialects Locaux . وتختلف هـذه اللهجات بعضها عن بعض اختلافا كبيرا في المساحة التي يشغلها كل منها : فمنها ما يشغل مقاطعة كاملة من مقاطعات الدولة ؛ ومنها ما تضيق منطقته فلا تشمل إلا بضع قرى متقاربة ؛ ومنها ما يكون وسطا بين هذا وذاك . وكثيراً ما تختلف هذه المناطق اللغوية في حدودها عن المناطق المصطلح عليها في التقسيم الإداري والسياسي . فقد تقسم القرى التي تتألف منها منطقة لغوية واحدة بين مديريتين أو أكثر ؛ وقد يجتمع في مديرية واحدة أو مركز واحد عدد كبير من المناطق اللغوية . ولدينا نحن المصريين على ذلك شواهد كثيرة في مختلف أقاليم الصعيد والوجه البحري .

وتعمل كل لهجة من اللهجات المحلية على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها ، فلا تدخر وسعا فى محاربة عوامل الابتداع والتغيير فى داخل منطقتها ، ولا تألو جهداً فى درء ما يوجه إليها من خارجها من هجمات .

أما محاربة عوامل الابتداع فى داخل منطقتها فتتم بفضل العلاقات الوثيقة التى تربط الناطقين بها بعضهم ببعض وتربطهم ببيئتهم ومجتمعهم . وذلك أنه بقوة هـذه العلاقات يقوى الضمير الجمعى ، وتتأكد سيطرة النظم الاجتماعية ، ويعظم نفوذها ، ويشتد بطشها بالمعتدين . فكل محاولة فردية للخروج على النظام اللغوى تلقى فى مجتمع قوى كهذا مقاومة عنيفة تكفل القضاء عليها فى مهدها . وبذلك تتقى اللهجة ماعسى أن يوجه إليها فى داخل منطقتها من محاولات الابتداع وعوامل التغيير .

وأما حمايتها من اللهجات المجاورة لها فيرجع الفضل فيها إلى ضعف الصلات التى تربط أهلها بمجاوريهم ، وقلة فرص احتكاكهم بهم ، وما يبدونه فى العادة من نزوع إلى العزلة والاستقلال . — ويظهر هذا على الأخص فى البيئات الزراعيـة التى تقل فيها وسائل المواصلات ، وتضعف حركة انتقال الأفراد ، ويكاد سكان كل منطقة يعيشون فى معزل عن سكان المناطق الأخرى . — حقاً إن تزوج بعض الرجال فى هذه البيئات إلى نساء من غير مناطقهم ، وهجرة بعض الأفراد من بلادهم إلى البلاد المجاورة لها ، كل ذلك وما إليه يجلب إلى البلد عناصر أجنبية عنه . ولكن قلة عدد من ينفذ من الأجانب عن هذه الطرق وما شاكلها ، وانتماءهم فى الأصل إلى مناطق لغوية مختلفة ، ودخولهم البلد فرادى وفى أزمنة متباعدة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وإقامة كل منهم بين مجموعة من الناس تختلف لهجة أفرادها عن لهجته ، وما يبديه أهل المنطقة حيال لهجاتهم من سخرية وازدراء ، وصعوبة فهم حديثهم أحيانا ... كل ذلك وما إليه لايحول دون تأثر لهجة البلد بلهجاتهم فحسب،

بل من شأنه كذلك أن يحملهم على محاكاة لسان المنطقة التى يقيمون فيها . ـ وأما البيئات التجارية والصناعية والساحلية التى يكثر فى العادة احتكاك أهلها بغيرهم ، فيرجع الفضل فى حماية لهجاتها إلى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين ، وانتمائهم إلى مناطق لغوية مختلفة ، وعدم وجود رابطة تربطهم بعضهم ببعض ، وقصر مدة إقامتهم ، لأن معظمهم يفد إلى البلد فى شئون لا تقتضيه إلا إقامة ساعات أو أيام .

* * *

غير أنه قد يتاح أحيانا للهجة محلية فرص للاحتكاك الدائم بلهجة أخرى . وحينئذ تشتبك اللهجتان فى صراع أهلى لا يختلف كثيراً فى مظاهره وطرقه عن الصراع الذى ينشب بين لغتين مختلفتين والذى عالجناه فى الفصل السابق .

وينتهى هذا الصراع إلى إحدى نتيجتين : فأحيانا لا تكاد إحدى اللهجتين تؤثر فى الأخرى ، وذلك إذا تساوى أهل المنطقتين فى الثقافة والقوة والنفوذ ؛ وأحيانا تتأثر إحداها بالأخرى ، وذلك إذا كانت أقل منها فى مظهر من المظاهر السابقة .

وتختلف درجة التأثر باختلاف الأحوال : فأحيانا يكون يسيراً لا ينال إلا بعض مظاهر ؛ وأحيانا يكون عميقا ينتهى بالقضاء على اللهجة المغلوبة .

فيكون يسيراً إذا لم تكن الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى الثقافة والنفوذ والسلطان . ويبدو هذا فى تأثر لهجة القرى بلهجة المدينة التى تجاورها أو يكون بها مقر المديرية أو المركز ، أو فى تأثرها بلهجة البلد الذى يتخذ مقرا لنقطة البوليس أو للعمدية أو التى يقام فيها السوق الأسبوعى . . . وهلم جرا . فنى هذه الحالات وما

إليها يقف التأثر عند حـد اقتباس الكلمات والتراكيب وطرق استخدام المفردات فى معانيها الحقيقية والمجازية . . . وما إلى ذلك . أما الأساليب الصوتية وطريقـة النطق بالحروف والكلمات فتظل بمنجاة من التأثر والتحريف . ومن ثم نرى أن القرى المحيطة بقاعدة مديرية من مديريات القطر المصرى قد تقتبس عنها كثيرا من ألفاظها وتراكيبها ومدلولات مفرداتها ... ؛ ولـكن لهجاتها تظل سليمة فيما يتعلق بالأصوات وطريقة النطق بالـكلمات . فالقرى المصرية التى تقلب فى لهجاتها القاف العربيـة جيما غير معطشة (جلنا = قلنا) قد تجاور مدينة تختلف عنها فى هـــذا الأسلوب الصوتى (بأن تقلب فيها مثلا القاف العربية همزة : ألنا = قلنا) ، فتقتبس عنها كثيرا من مفرداتها وتراكيبها ودلالاتها وأساليبها ؛ ولـكن تظل طريقتها الصوتية حيال القاف العربية بمأمن من التأثر بطريقة المدينة ، اللهم إلا فى الكلمات التى تقتبسها منها .

أما إذا كانت الفوارق كبيرة بين أهل المنطقتين فى ناحية من النواحى السابق ذكرها ، فإن التأثر يكون عميقا لدرجة تصل أحيانا إلى القضاء على اللهجة المغلوبة . ويحدث هذا فى حالتين :

(الحالة الأولى) أن تـكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى. ففى هـذه الحالة يكتب النصر للهجة المنطقة ذات السلطان ، على شريطة أن لا تقل عن المنطقة الأخرى حضارة وثقافة وآدابا . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ القديم والحديث : فلهجة باريس ، حيث مقر الحـكومة والسلطان ، قد قضت على كثير من لهجات المقاطعات الفرنسية التى خضعت لنفوذ باريس ؛ وكذلك فعلت لهجة لندن مع عـــدد كبير من اللهجات الإنجليزية الأخرى ؛ ولهجة مدريد مع اللهجات الإسبانية ؛ ولهجة روما فى العصور القديمة مع أخواتها الإيطالية ؛ ولهجة قريش

قبل الإسلام مع اللهجات المصرية الأخرى . . . وهلم جرا [١] .

(الحالة الثانية) أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة الأخرى فى ثقافتها وحضارتها وآداب لغتها . فنى هذه الحالة يكتب النصر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان سياسى على المنطقة الأخرى . ولذلك أخذت اللهجة السكسونية بألمانيا تطارد اللهجات الألمانية الأخرى منذ القرن السادس عشر الميلادى ، أى قبل أن تتكون الدولة الألمانية الحديثة وقبل أن تظهر غلبة برلين [٢] ؛ وأخذت التوسكانية Toscan بإيطاليا تقهر اللهجات الإيطالية الأخرى منذ القرن الرابع عشر الميلادى . أى قبل أن تتكون الدولة الإيطالية الحديثة ، وقبل أن يظهر سلطان روما [٣] ؛ وذلك بفضل ما كان لكل من السكسونية والتوسكانية من إنتاج أدبى لا يذكر بجانبه إنتاج أخواتها التى اشتبكت معها فى هذا الصراع .

وفى كلتا الحالتين السابقتين يختلف الصراع فى مدته وعنفه تبعاً لمبلغ قرب اللهجتين إحداهما من الأخرى ومبلغ ثقافة المنطقة المغلوبة . فيطول أمده ويشتد عنفه كلما كثرت وجوه الخلف بين اللهجتين أو قلت ثقافة الناطقين باللهجة المقهورة . فلهجة مدريد لم تقو بعد على التغلب على كثير من اللهجات الإسبانية الأخرى ، ولا تزال إلى الآن تلقى مقاومة عنيفة من جانبها ، وذلك لتفشى الجهل والأمية بين الناطقين

---

(١) ضربنا بعض هذه الأمثلة فى الفصل السابق بصدد صراع اللغات بعضها مع بعض . وذلك لأنها تصلح أمثلة للأمرين معا . فاللغات المصرية مثلا يصح اعتبار كل منهـا لغة مستقلة ، ويصح النظر إليها على أنها لهجات محلية قد انشعبت عن لغة واحدة . وكذلك لهجة روما قديما مع اللهجات الإيطالية ... وهلم جرا .

(٢) على أن برلين لم تكن مهد السكسونية ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

(٣) على أن روما لم تكن مهد الإيطالية الحديثة ، بل انتقلت إليها كما انتقلت إلى غيرها .

بهذه اللهجات . ـ ولهـذا السبب نفسه لم يتم بعد للهجة القاهرة التغلب على لهجات المناطق المصرية المجاورة لها . ـ وفى القسم الفرنسى اللغة من سويسرا لا تزال اللهجات المحلية تقاوم الفرنسية الفصحى فى المنـاطق الـكاثوليكية (ڤاليه ، فريبورج . . . Valais, Fribourg) ، على حين أنه قد تم انقراض هذه اللهجات أو كاد فى المناطق البروتستانتية (نيوشاتل ، جنيف . . .) ؛ وذلك لأن المناطق البروتستانتية من هذا القسم أرقى ثقافة وعلما من المناطق الـكاثوليكية وأقدم منها عهداً بالمدارس . ولسان باريس قد تغلب بسهولة على اللهجات التى كانت منتشرة فى إقليمى السين واللوار ، لقلة وجوه الخلف بينه وبينها ؛ على حين أنه لم يقو بعد على التغلب على لهجات جنوب فرنسا ولا يزال يلقى منها مقاومة عنيفة، لـكثرة الفروق التى تفصلها عنه .

هـــــذا ، ويسير تغلب لهجة على أخرى على نفس السنن الذى يسير عليه تغلب اللغات المختلفة بعضها على بعض والذى أشرنا إليه فى الفصل السابق[١] . ففى المرحلة الأولى تقذف اللهجة الغالبة اللهجة الأخرى بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلى وتجرده من كثير من مقوماته . ولـكن اللهجة المغلوبة تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بمخارج حروفها وأساليبها فى نطق الـكلمات . فينطق أهلها بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقا لأسلوبهم الصوتى ومخارج حروفهم ، حتى أنهم ليستبدلون فى الـكلمات الدخيلة بالحروف التى لا يوجد لها نظير لديهم حروفا قريبة منهـا من حروف لهجتهم . ـ وفى المرحلة التالية تتسرب إلى اللهجة المغلوبة أصوات اللهجة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الـكلمات ؛ فينطق أهل اللهجة المغلوبة بألفاظهم الأصـيلة وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج

---

(١) انظر ص صفحتى ٨٨ ، ٨٩ .

وبنفس الطريقة التى يسير عليها النطق فى اللهجة الغالبة ، فيزداد بذلك انحلال اللهجة المغلوبة ويؤذن نجمها بالأفول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبسلة فى الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (المورفولوجيا والسنتكس) وفى مقاومة قواعد اللهجة الغالبة ، إن كانت تختلف عنها فى القواعد(١) . فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفى المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً ، فتأخذ قواعد اللهجة الغالبة فى الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللهجة المغلوبة . غير أنها كثيراً ما تترك فى ألسنة أهلها بعض آثار من قواعدها القديمة . فكثير من سكان جنوب فرنسا لا يزالون يؤلفون عباراتهم فى صور تختلف عن قواعد الفرنسية الفصحى ، ولكنها تتفق مع قواعد لهجاتهم المندثرة.

* * *

واللهجة التى يتاح لها التغلب فى أمة ما على بقية أخواتها أو على معظمها تصبح، عاجلا أو آجلا ، « لغة الدولة » أو ما يطلق عليه اسم « اللغة القومية » أو « اللغة الفصحى» أو « لغة الكتابة » . فتعلم وحدها فى مدارس الدولة ، ويجرى بها تدريس المواد المختلفة فى معاهدها ، وتؤلف بها الكتب والصحف والمجلات ، وتصدر بها المكاتبات الرسمية وغيرها ، وتستخدم فى مختلف نواحى الوعظ والخطابة ، وتلقى بها الأوامر ويجرى بها التخاطب فى الجيش . . . وهلم جرا(٢) . فقد ترتب على تغلب

---

(١) لا يكون الاختلاف فى العادة كبيرا فى القواعد بين اللهجات المتشعبة من لغة واحدة قبل أن يستقل بعضها عن بعض وتصبح لغات منفصلة كما سبقت الإشارة إلى ذلك بصفحة ١١٤ .

(٢) قد لا يكون للأمة أى لغة قومية مستقلة ، كما هو شأن النمسا ، فإن لغتها هى الألمانية . وقد يكون للدولة أكثر من لغة رسمية واحدة ، كما هو شأن سويسرا ، فإن بها ثلاث لغات رسمية : الألمانية والفرنسية والإيطالية . وقد تكون اللغة الرسمية ولغة الكتابة فى الأمة هى اللغة القديمة التى انشعبت منها لهجتها ، كما كان شأن اللاتينية بفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال ورومانيا ، وكما هو شأن اللغة العربية الآن بمصر وبلاد العرب وشمال افريقية .

لهجة باريس على معظم أخواتها أن أصبحت « لغة الدولة » بفرنسا ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغة الفرنسية . وهذا هو ما حدث عقب تغلب لهجة لندن بانجلترا ومدريد بإسبانيا واللهجة السكسونية بألمانيا والتوسكانية بإيطاليا ؛ فقد أصبحت هذه اللهجات هي اللغات الرسمية ؛ وعليها وحدها يطلق الآن اسم اللغات الإنجليزية والإسبانية والألمانية والإيطالية .

وتسلك لغات الكتابة في تطورها طريقا خاصة تختلف عن الطريق التي تسلكها لغات المحادثة ، كما سيظهر ذلك في الفقرة التالية . ولذلك نرى أن لغة الكتابة مع اتفاقها في المبدأ مع لهجة المحادثة الغالبة ، لا تلبث فيما بعد أن تختلف عنها في كثير من الشئون ، ولا تنفك مسافة الخلف تتسع بينهما حتى تستقل كل منهما عن الأخرى . فلغة الكتابة بفرنسا تختلف الآن عن لهجة المحادثة الباريسية اختلافا غير يسير .

(٤) اختلاف نواحي اللغة الفصحى باختلاف فنون القول

لغة الآداب وخصائصها وأنواعها : الشعر والنثر ،

وظيفتا اللغة : الدلالة والإيحاء

كما تنشعب لغة المحادثة إلى لهجات مختلفة تبعا لاختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ، تنشعب كذلك لغة الكتابة أو اللغة الفصحى إلى شعب مختلفة تبعاً لاختلاف فنون القول التي تستخدم فيها ، وما يمتاز به

كل فن منها : الشعر، النثر الأدبى ، الخطابة ، القصة ، الرسائل ، التاريخ ، القانون، تدوين العلوم ... الخ . وذلك أن كل فن من هذه الفنون يختلف عما عداه فى طبيعته وأغراضه البيانية ومناهج الاستدلال فيه ، ومقدار صلته بكل من الناحيتين الوجدانية والإدراكية ، ومدى إقبال الجمهور عليه وأثره فى نفسه وتلاؤمه مع اتجاهاته وحاجاته ، ومبلغ نشاط المشتغلين به وما يخترعونه فيه من اصطلاحات ويدخلونه من أساليب ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار . . . وهلم جرا . وغنى عن البيان أن الاختلاف فى هذه الأمور وما إليها يؤدى حتما إلى اختلاف كل فن من الفنون السابق ذكرها عما عداه فى مفرداته وأساليبه ومعانيه وأفكاره ، وطريقة علاجه للحقائق ... وما إلى ذلك . وقد تتسع مسافة الخلف بين هذه الفنون فتصبح لغة كل منها أشبه شىء بلغة مستقلة . وهـذا هو المشاهد الآن فى كثير من اللغات الراقية . فبمجرد سماع عبارة فى اللغة العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية أو غيرها من اللغات الراقية يستطاع بسهولة معرفة الفن الذى تتصل به : فعلى ضـوء مفرداتها وأسلوبها ونظمها وتراكيبها وطريقة إبانتها عن الحقائق . . . يستطاع بسهولة الحكم إن كانت شعرا أم خطابة أم كتابة رسائل أم مقالا صحفيا أم بحثا علميا . . . وهلم جرا .

* * *

ومن أهم شعب اللغة الفصحى ما يسمونه لغة الأدب **Langue Littéraire** ، وهى التى تستخدم فى الأدب شعره ونثره . وتمتاز هذه الشعبة عن أخواتها بأن ما يتخذه غيرها وسيلة تتخذه هى غاية ، أو توجه إليه على الأقل أكبر قسط من العناية . ففى جميع الشعب الأخرى (لغة العلوم ، لغة الفلسفة ، لغة التاريخ . . .) تتخذ الكلام

مجرد وسيلة للتعبير عن الحقائق . أما فى هذه الشعبة فيتخذ البيان نفسه غرضا فى ذاته ويوجه إلى تجويده أكبر قسط من المجهود . فأهم ما يقام له وزن فى لغة الأدب هو جمال القول ، ورقة الأسلوب ، وحسن البيان ، ورصانة اللفظ ، وفصاحة الكلام ، وبلاغة التعبير ... وهلم جرا .

وتنقسم الآداب نفسها إلى فنون كثيرة ، أهمها الشعر وملحقاته ، والنثر الأدبى ، والخطابة ، والقصة . ويختلف كل فن من هـــذه الفنون عن إخوته فى طبيعته ، وموضوعاته ، ومواطن استخدامه ، ومقدار صلته بالوجدان والإدراك ، ومبلغ نشاط المشتغلين به ، وما يناله من تطور وتجديد ، وما يرمى إليه من أغراض ... الخ . وقد ترتب على ذلك أن كان لكل فن منها خصائصه اللغوية ومميزاته فى النظم والوزن ، والتأليف الموسيقى ، وجرس الألفاظ ، وتركيب الجمل ، وطريقة الاستدلال ، وشرح الحقائق ، ومنحى الأسلوب .

وأهم ما يمتاز به الشعر عن غيره أنه يتجه أولا وبالذات إلى مخاطبة الوجدان والعواطف لا الإدراك والتفكير ، وأن غرضه الأساسى هو الإيحاء بالحقائق والإحساسات لا شرح المسائل وتقريبها إلى الأذهان . ولذلك يظهر فيه تعمد الغموض والميل إلى الإبهام ، ويسيطر على أساليبه الخيال ، ويكثر فى عباراته التشبيه واستخدام الكلمات والعبارات فى غير ما وضعت له عن طريق الكناية والمجاز ، ويبدو فيه النفور من تحليل الحقائق وكراهته التعمق فى الشرح والاستدلال . أما نظم العبارات فى أوزان خاصة فليس شرطا أساسيا فى الشعر : فإذا توافرت الصفات السابقة فى كلام منثور اعتبر شعراً فى الاصطلاح الأدبى ؛ وإن جنح كلام منظوم إلى الشرح والاستدلال والتعمق فى توضيح الحقائق ، وتغلبت فيه وجهة الدلالة على وجهة الإيحاء ، فإنه لا يعد شعرا على الرغم من أوزانه وقوافيه .

(٥) اختلاف اللهجات فى البلد الواحد باختلاف طبقات الناس وفئاتهم

« اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux

تنشعب أحيانا لغة المحادثة فى البلد الواحد أو المنطقة الواحدة إلى لهجات مختلفة تبعالاختلاف طبقات الناس وفئاتهم: فيكون ثمة مثلا لهجة للطبقة الأريستوقراطية، وأخرى للجنود ، وثالثة للبحارة ، ورابعة للرياضيين ، وخامسة للبرادين ، وسادسة للنجارين ... وهلم جرا . ويطلق المحدثون من علماء اللغة على هذا النوع من اللهجات اسم « اللهجات الاجتماعية » Dialectes Sociaux تمييزا لها عن « اللهجات المحلية » Dialectes Locaux التى كانت موضوع حديثنا فى الفقرات الثلاث الأولى من هذا الفصل[١] .

ويؤدى إلى نشأة هـذه اللهجات مايوجد بين طبقات الناس وفئاتهم من فروق فى الثقافة والتربيـة ، ومناحى التفـكير والوجدان ، ومستوى المعيشة ، وحياة الأسرة ، والبيئة الاجتماعية ، والتقاليد والعادات ، وما تزاوله كل طبقة من أعمال وتضطلع به من وظائف ، والآثار العميقة التى تتركها كل وظيفة ومهنة فى عقليـة المشتغلين بها ، وحاجة أفراد كل طبقة إلى دقة التعبير وسرعته وإنشاء مصطلحات خاصة بصدد الأمور التى يكثر ورودها فى حياتهم وتستأثر بقسط كبير من انتباههم، وما يلجئون إليه من استخدام مفردات فى غير ما وضعت له أو قصرها على بعض مدلولاتها للتعبير عن أمور تتصل بصناعاتهم وأعمالهم . . . وهلم جرا : فمن الواضح أن هذه الفوارق وما إليها من شأنها أن توجه اللهجة فى كل طبقة وجهة تختلف عن

---

(١) يرجع الفضل فى هاتين التسميتين إلى العلامة بول باسى Paul Passy

وجهتها عند غيرها ؛ فلا تلبث أن تنشعب اللهجة العامة إلى لهجات تختلف كل منها عن أخواتها فى المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ ... وما إلى ذلك . وقد تذهب بعض اللهجات الاجتماعية بعيداً فى هذا الطريق ، فيشتد انحرافها عن الأصل الذى انشعبت منه ، وتتسع مسافة الخلف بينها وبين أخواتها حتى تكاد تصبح لغة متميزة مستقلة غير مفهومة إلا لأهلها : كما هو شأن اللهجات الفرنسية المستخدمة بين طبقات اللصوص والمجرمين وبعض طبقات العمال Argots des voleurs, des malfaiteurs, et des ouvriers.

ويزداد فى العادة انحراف اللهجة الاجتماعية عن أخواتها كلما كثرت الفوارق بين الطبقة الناطقة بها وبقية الطبقات ، أو كانت حياة أهلها قائمة على مبدأ العزلة عن المجتمع أو على أساس الخروج على نظمه وقوانينه . ولذلك كانت فى فرنسا لهجات الطبقات الدنيا من العمال ، واللهجات السرية لجماعات المتصوفين والرهبان ، ولهجات المجرمين واللصوص ومن إليهم ، من أكثر اللهجات انحرافا عن الأصل الذى انشعبت منه ، وبعداً عن المستوى العام لبقية اللهجات الاجتماعية الفرنسية .

ولا تظل اللهجات الاجتماعية جامدة على حالة واحدة ، بل تسير فى نفس السبيل الارتقائى الذى تسير فيه اللهجات المحلية ؛ فيتسع نطاقها باتساع شئون الناطقين بها ، ومبلغ نشاطهم ، واحتكاكهم بالأجانب وبأهل الطبقات الأخرى من مواطنيهم ، وما يخترعونه من مصطلحات ويتواضعون عليه من عبارات ويقتبسونه عن اللغات الأجنبية من مفردات وأفكار ، وتختلف أساليبها وطرق تركيبها باختلاف العصور وتطور الظروف الاجتماعية المحيطة بالطبقات الناطقة بها . فلهجات العمال والمجرمين بفرنسا تختلف بعد الحرب العظمى اختلافا بينا عما كانت عليه قبل ذلك ، وتختلف فى القرن العشرين اختلافا كبيرا عما كانت عليه مثلا فى القرنين الرابع عشر

والخامس عسر . ولا أدل على ذلك من أن معظم القطع التى كتبها بتلك اللهجات فى القرن الخامس عشر الشاعر الفرنسى فرنسوا ڤيلون François Villon[1] لم يستطع بعد فى العصر الحاضر حل رموزها وفهم مدلولاتها .

وتؤثر اللهجات الاجتماعية فى لغة المحادثة العادية تأثيراً كبيراً ؛ فتستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات ، وبخاصة المفردات التى خصص مدلولها العام واصطلح على إطلاقها على أمور خاصة تتعلق بفن أو حرفة وما إلى ذلك . فلغة المحادثة العادية بباريس فى العصر الحاضر قد دخل فيها عن هـذا الطريق كثير من مفردات اللهجات الاجتماعية وبخاصة لهجات العمال والمجرمين .

ولا تتميز فى العادة اللهجات الاجتماعية بعضها عن بعض تميزا واضحا إلا فى المدن الكبيرة حيث يتكاثف السكان ، ويزدحم الناس ، وتنشط الحركة الاقتصادية ، وتتنوع الوظائف وتتعدد المهن ، ويشتد النزاع بين الطبقات : كنيويورك ولندن وباريس فى العصر الحاضر ، وكبغداد فى العصر العباسى .

وأهم أنواع اللهجات الاجتماعية مايسمونه « باللهجات الحرفية » ؛ وهى اللهجات التى يتكلم بها فيما بينهم أهل الحرف المختلفة كالبرادين والنجارين والنقاشين والصيادين والبحارة . . . وهلم جرا . وتتميز اللهجات الحرفية بعضها من بعض تميزا كبيرا فى المناطق التى يسود فيها « نظام الطوائف » Regime des Castes حيث تختص كل طبقة بحرفة أو وظيفة خاصة تكون وقفا على أفرادها لايجوز لهم ولا لأعقابهم من بعدهم الاشتغال بغيرها ، كما لايجوز لغيرهم الاشتغال بها : كما هو الحال فى كثير من بلاد

---

(١) شاعر فرنسى ولد بباريس سنة ١٤٣١ وتوفى سنة ١٤٨٩ . وقد عاش فى وسط اللصوص والمجرمين ، واتهم أكثر من مرة بالسرقة والقتل . ومن أشهر مؤلفاته « العهد الصغير » و « العهد الكبير » Petit Testament; Grand Testament

الهند . على حين أنه فى الأمم الحديثة التى قضى فيها على نظام الطوائف ، فأصبحت الحرف حظا مشاعا بين جميع أفراد السكان ، يزاول كل منهم المهنة التى تروقه،وينتقل إذا شاء من مهنة إلى أخرى ، وأصبحت الطبقات الاجتماعية غير واضحة الحدود ولا موصدة الأبواب على غير أهلها ، فى هـذه الأمم تتداخل اللهجات الحرفية بعضها فى بعض ، ويتأثر بعضها ببعض ، وتقل بينها الفروق ، وتضعف المميزات .

* * *

هذا ، وقد خيل إلى بعض علماء «الإتنوجرافيا» أن اللهجات الاجتماعية لا تنشأ من تلقاء نفسها ، بل تخلق خلقا ، وتبتدع بالتواضع والاتفاق بين أفراد الطبقة الواحدة، وترتجل ألفاظها ومصطلحاتها ارتجالا . وقد تابعهم فى هـذا الرأى بعض القدامى من علماء اللغة ؛ ولذلك لم تنل هذه اللهجات كبير حظ من عنايتهم .

وليس لهذه النظرية أى سند عقلى أو تاريخى . بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة التى تسير عليها النظم الاجتماعية ؛ فعهدنا بهذه النظم أنهـا لا ترتجل ارتجالا ولا تخلق خلقا ؛ بل تتـكون بالتدريج من تلقاء نفسها . هـذا إلى أن معظم هـذه اللهجات منتشر بين طبقات فقيرة جاهلة منحطة المدارك ضعيفة التفـكير ، لا يتاح لمثلها أن تنشىء إنشاء لغة كاملة المفردات متميزة القواعد ، بل لا يتاح لها مجرد التفكير فى مثل هذا المشروع الخطير : طبقات المتسولين واللصوص والحدادين والصيادين ... وهلم جرا .

والحق أن « اللهجات الاجتماعية » لا تختلف فى نشأتها عن «اللهجات المحلية» التى تـكلمنا عنها فى الفقرات الثلاث الأولى من هـذا الفصل . فكلا النوعين ينشعب عن اللغة الأصلية ويستمد منها أصول مفرداته ووجهة أساليبه وتراكيبه وقواعده ؛

وكلاهما تلقائى النشأة ينبعث عن مقتضيات الحياة الاجتماعية وشئون البيئة . وكل ما بينهما من فرق أن السبب الرئيسى لنشأة « اللهجات المحلية » يرجع إلى اختلاف الأقاليم وما يحيط بكل إقليم من ظروف وما يمتاز به من خصائص ؛ على حين أن السبب الرئيسى فى نشأة « اللهجات الاجتماعية » يرجع إلى اختلاف طبقات الناس فى الإقليم الواحد وما يكتنف كل طبقة منها من شئون ويفصلها بعضها عن بعض من مميزات فى شتى مظاهر الحياة .

غير أننا قد نعثر أحيانا فى بعض اللهجات الاجتماعية على مفردات لا أصل لها مطلقا فى لغة البلد ولا فى اللغات الأجنبية . ومفردات كهذه يغلب على الظن أنها قد اخترعت فى الأصل اختراعا من بعض الأفراد وانتشرت عن طريق التقليد . ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون مقصورة على لهجات الطبقات الراقية ، ولا تبدو إلا فى عدد قليل من الكلمات . أما معظم المفردات فترجع أصولها إلى كلمات منحدرة من لغة البلد أو مقتبسة من بعض لغات أجنبية . غير أن الغالب أن ينالها ، مع تقادم الزمن، كثير من التحريف والتغيير ، فتبعد بعداً كبيراً عن الأصل الذى أخذت منه. وقد تصل فى انحرافها هذا إلى درجة يخيل معها للباحث السطحى أنها ابتدعت بالتواضع والارتجال . ولعل هذا هو ما حدا ببعض العلماء على الظن بأن اللهجات الاجتماعية ناشئة عن تأليف واختراع[١] .

---

(١) يرجع الفضل فى دراسة اللهجات الاجتماعية إلى طائفة من علماء اللغة وعلماء الاجتماع .

ومن أشهر من عنى بدراستها من علماء الاجتماع العلامة فن جينيب **V. Van. Gennep : Essai d'une théorie des Langues Speciales (Revue des Etudes éthnographiques et Sociologiques, juin - juillet 1908) .**

(٦) اختلاف لهجة الرجال عن لهجة النساء

قد يحدث فى بعض الشعوب التى يقل فيها اختلاط الرجال بالنساء ، أو يعيش فيها كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر تحت تأثير نظم دينية أو تقاليد اجتماعية ، أن تختلف لهجة الرجال عن لهجة النساء اختلافا يسيرا أو كبيرا .

وتكثر مظاهر هذا الاختلاف اللغوى كلما استحكمت حلقات الانفصال بين الجنسين ؛ حتى أنه لينشأ أحيانا من جراء ذلك لكل منهما لهجة تختلف اختلافا بينا عن لهجة الآخر ، أو تشتمل لهجة كل منهما على مفردات وجمل كثيرة لاتستخدم فى اللهجة الأخرى . وقد لوحظ ذلك فى بعض الشعوب البدائية على الأخص[1] .

ويخف هذا الاختلاف اللغوى كلما خفت قيود الاختلاط بين الجنسين ؛ فتقتصر مظاهره على بعض فروق يسيرة فى الأصوات والمفردات والجمل والأساليب ، كما هو مشاهد فى كثير من المناطق المصرية فى العصر الحاضر .

وليست هذه اللهجات فى الواقع إلا نوعا من أنواع « اللهجات الاجتماعية » التى تقدم الكلام عنها فى الفقرة السابقة . فمعظم ماقلناه هناك فى نشأة اللهجات الاجتماعية وعواملها وتطورها ... وما إلى ذلك يصدق على هذا النوع .

***

---

(1) V. Durkheim : «La Prohibition de l'Inceste et ses origines» dans : «L'Année Sociologique» T. I. P. 49.

(٧) خلاصة هذا الفصل

هذا والنتائج التى تهدينا إليها دراستنا لهذا الموضوع هى نفس النتائج التى انتهت إليها دراستنا لموضوعى الفصلين الأول والثانى :

١ — فقد ظهر لنا مما تقدم فى هذا الفصل أن الطريق التى يسير فيها تفرع اللغة الواحدة إلى عدة لهجات ، والخطط التى ينهجها ، والمراحل التى تقطعها كل لهجة من اللهجات المتفرعة فى سبيل تطورها حتى تصبح لغة مستقلة ، والوجوه التى تختلف فيها هذه اللهجات بعضها عن بعض ، وما يتركه الأصل الأول فى كل منها من آثار تنطق بما بينها من صلات قرابة ولحمة نسب لغوى ، والحالات التى تشترك فيها اللغة الأصلية مع اللهجة المتفرعة فى أداء وظائف التعبير ، إذ تستخدم الأولى فى شئون الكتابة والآداب وتستأثر الثانية بشئون التخاطب العادى ، والحالات التى تستغنى فيها اللهجة المتفرعة استغناء تاما عن اللهجة الأصلية، فتستخدم فى الشئون الأدبية كما تستخدم فى شئون المحادثة ، وما يحدث بين « اللهجات المحلية » من صراع ، وما تتخذه كل لهجة منها فى أثناء ذلك من وسائل المقاومة وخطط الهجوم ، والمدة التى يستغرقها هـذا الصراع ، والنتائج التى ينتهى إليها ، ومبلغ تأثر كلتا اللهجتين المتصارعتين بالأخرى ، والنواحى التى يبدو فيها هذا التأثر ، وما ينال عناصر كلتيهما من تغير وانحراف ، والخطوات التى تسير بها اللهجة الغالبة فى سبيل انتصارها واللهجة المغلوبة نحو انقراضها ، وموقف كل منهما حيال الأخرى فى حالة تكافؤ القوى ، والمكانة التى تحتلها اللهجة المتغلبة والشئون التى تستأثر بها إذ تصبح « لغة الدولة » أو « اللغة القوميـة » ، وما يعتورها من تطور واختلاف فى المناحى تبعاً لاختلاف فنون القول ، ونشأة «اللهجات الاجتماعية» فى البلد الواحد ، ومبلغ انحراف

هذه اللهجات بعضها عن بعض ، ومراحل التطور التى تسلكها كل لهجة منها ، والآثار المتبادلة بينها وبين لغة المحادثة العادية . . . ، ظهر لنا مما سبق أن كل أولئك وما إليه لا يجرى تبعاً للأهواء والمصادفات أو وفقاً لإرادة الأفراد ؛ وإنما يخضع فى سيره لقوانين جبرية ثابتة ، مطردة النتائج ، محققة الآثار ، لا يستطيع أحد سبيلا إلى وقفها أو تغيير ما تؤدى إليه .

فليس فى قدرة الأفراد أن يحولوا دون انشعاب لغـة ما إلى عدة لهجات متى توافرت شروط هـذا الانشعاب ، ولا أن يتحكموا فى أية ناحية من نواحيه فيسيروا بها فى طريق غير الطريق التى تقررها قوانين هذه الناحية . فمهما أجهدوا أنفسهم فى هذا السبيل ، ومهما اتخذوا من وسائل ، فلن يغيروا شروى نقير مما تقضى به سنن التفرع اللغوى .

وإليك مثلا اللغة العربيـة : فعلى الرغم من الجهود الجبارة التى بذلت فى سبيل صيانتها ؛ والاحتفاظ بوحدتها ، ومحاربة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف ؛ وعلى الرغم من الأسوار المنيعة التى أقامها لحمايتها العلماء والأدباء إذ أنشئوا علوم النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والاشتقاق والقراءات وأدب اللغة . . . ووضعوا لمتنها مثات المعجمات ، فوصلوا بها فى تحديد الألفاظ والدلالة ، وضبط الأصوات والقواعد ، وتسجيل الآثار الأدبيـة ، إلى درجة منقطعة النظير ؛ وعلى الرغم من أن هذه الجهود كانت مؤيدة بالعقيدة ومرتـكزة على دعامه من الدين ؛ على الرغم من هذا كله فإن اللغة العربية لم تلبث أن حطمت هذه الأغلال ، وتسلقت هذه الأسوار ، وأفلتت من جميع هـذه القيود ، وسارت فى السبيل التى أرادتها على السير فيها سنن التفرع اللغوى ، فانشعبت فى ميادين المحادثة إلى عدة لهجات ، وأخذت مسافة الخلف تتسع شيئاً فشيئاً بينها وبين هذه اللهجات حتى بعدت عنها بعداً كبيراً فى كثير من

مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات والأساليب ، بل أخذت مسافة الخلف تتسع شيئاً فشيئاً بين هذه اللهجات نفسها حتى أصبح بعضها غريباً عن بعض .

ومن هذا يستبين كذلك خطأ من يحاولون علاج تعدد اللغات بإنشاء لغة عالمية (إسبرنتو Esperanto) يتحدث بهـا الناس فى مختلف الأمم والعصور . وذلك أن هـذه اللغة الصناعية ، على فرض إمكان اختراعها وإلزام الناس باستخدامها[1] ، لاتلبث بعد تداولها على الألسنة أن تخضع لجميع القوانين التى تخضع لها اللغات الطبيعية والتى خضعت لها أول لغة تكلم بها الإنسان . فما دام أفراد الأمم الناطقة بها مختلفين فى أصولهم الشعبية ، وفى التكوين الطبيعى لجسومهم وأعضاء نطقهم ، وفى الظروف الجغرافية والطبيعية والاجتماعية المحيطة بهم ، وفى قوائم الإدراكية والوجدانية ، وما دامت سـنة الطبيعة تقتضى أن يختلف كل جيل عن الجيل السابق له فى كل هـذه الأمور ، فلا بد أن تختلف هـذه اللغة فى كلماتها وأصواتها ودلالاتها وقواعدها . . . باختلاف العصور وباختلاف الشعوب الناطقة بها ، وتنقسم إلى لهجات تختلف كل واحدة منها عما عداها ، وتتفرع منها لغات عامية ، وتتسع الهوة بين لهجاتها قليلا قليلا حتى تنفصل كل لهجة منها عما عداها انفصالا تاما ، وتصبح غير مفهومة إلا لأهلها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من اللغات . وهكذا لا يمضى زمن قصير أو طويل حتى يتولد من هـذا العلاج نفس المشكلة التى يحاولون القضاء عليها : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ... » ؛ « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » .

(١) هذه الأمنية ، وإن كانت ممكنة نظريا ، يحول دون تحقيقها عمليا صعوبات جمة .

٢ — وقد ظهر مما تقدم فى هذا الفصل أن أهم الأسباب التى تؤدى إلى التفرع اللغوى وأهم العوامل التى تؤثر فى سيره ونتائجه ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة. فالفتح، والاستعمار، والهجرة، ونشاط حركة العمران فى البلاد، وضعف السلطان المركزى الذى يسيطر على أجزاء المملكة الواحدة، وانحلال الروابط السياسية التى كانت تجمعها، واختلاف المناطق بعضها عن بعض فى النظم الاجتماعية والعرف والتقاليد والعادات ونواحى التفكير والوجدان والقوة والنفوذ ومظاهر الحضارة والآداب، واختلاف الطبقات التى تسكن بلدا واحدا بعضها عن بعض فى المهنة والثقافة والتربية ومستوى المعيشة وحياة الأسرة، وما يكتنف كل منطقة من مناطق المملكة وكل طبقة من طبقات سكانها فى حياتها من ظروف، وانسجام بعض الطبقات مع المجتمع العام وقيام بعضها على أساس العزلة عنه أو الخروج على نظمه وقوانينه، ومبلغ اختلاط الرجال بالنساء فى شعب ما أو معيشة كلا الجنسين بمعزل عن الجنس الآخر، والاحتكاك بين الناطقين بلهجات ترجع إلى أصل واحد ... وما إلى ذلك من الأمور التى تقدم أنها تؤدى إلى انشعاب اللغة الواحدة إلى «لهجات محلية» و « لهجات اجتماعية » ، وتؤثر فى طريقة هذا الانشعاب ومناهجه ، وفى صراع اللهجات بعضها مع بعض، ونتائج هذا الصراع، وفى تطور هذه اللهجات واختلافها بعضها عن بعض ... كل ذلك مرده إلى ظواهر الاجتماع وشئون العمران.

٣ — غير أنه قد ظهر لنا كذلك أن بعض الأسباب التى تؤدى إلى هذا التفرع وبعض العوامل التى تؤثر فى سيره ونتائجه ترجع إلى أمور غير اجتماعية . وذلك كالحواجز الجغرافية التى تفصل المناطق بعضها عن بعض، وكالخواص الجسمية الوراثية التى يمتاز بها سكان كل منطقة فى المملكة الواحدة عن سكان المناطق الأخرى، وخاصة ما يتصل منها بأعضاء النطق.

حقاً إن آثار هذه العوامل فى التفرع اللغوى ليست شيئاً مذكورا بجانب آثار العوامل الاجتماعية ، كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية نسبية ، فإن عليها تتوقف نواح كثيرة فى الانشعاب اللغوى وفى نتائجه .

وحقاً إن بعضها لا يؤثر إلا عن طريق الظواهر الاجتماعية . فالحواجز الجغرافية مثلا لا تؤثر فى التفرع اللغوى إلا عن طريق ماتحدثه بين سكان المناطق من فواصل وفروق فى شئون الاجتماع . ولكن لا يصح إغفال أثرها مهما كان هذا الأثر غير مباشر .

خاتمة

إن الفقرات التى ختمت بها فصول الكتاب الثلاثة[١] لتغنينا عن الإطناب فى هذه الخاتمة ، وتبين بحجة قاطعة صحة الحقائق التى قصدنا إلى إبرازها فى مؤلفنا هذا .
فإذا ضممنا هـذه الفقرات بعضها إلى بعض ، ولاحظنا أنها خلاصة لدراسة جميع النواحى المتصلة بحياة اللغة (لأن كل ما يعتور اللغة فى حياتها لا يعدو الأمور التى عرضنا لها فى هـذه الفصول) ، ظهر لنا ، فى صورة لا يتطرق إليها الشك، صدق الحقيقتين الآتيتين ، وهما اللتان رمينا إلى بيانهما فى هذه الرسالة :

١ — أن اللغة فى مختلف مظاهر حياتها ـ شأنها فى ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ـ ترتبط ارتباطا وثيقا بما عداها من ظاهرات العمران ، وأن أهم العوامل التى تؤثر فيها ترجع إلى هذه الظاهرات .

غير أنه قد تبين لنا كذلك أن اللغة قد تتأثر فى بعض نواحيها بظواهر غير اجتماعية كالأمور التى تتصل بالبيئة الجغرافية[٢] أو بوظائف الأعضاء[٣] أو باختلاف الشعوب فى خواصها الجسمية الوراثية[٤] أو بعدد السكان ومبلغ كثافتهم أو تخلخلهم[٥] أو ببنية اللغة نفسها ومتنها وقواعدها وطبيعة أصواتها وتفاعلها بعضها مع بعض وموضع الصوت فى الكلمة وما إلى ذلك[٦] .

حقاً إن آثار هـذه العوامل ليست شيئاً مذكورا بجانب آثار العوامل الاجتماعية

(١) انظر صفحات ٧٨ ـ ٨٠ ؛ ١٠٢ ـ ١٠٤ ؛ ١٣١ ـ ١٣٥.
(٢) انظر مثلا صفحات ٥٥ ، ٥٦ ، آخر ١١٢ وأول ١١٣ .
(٣) انظر مثلا صفحات ٤٨ ـ ٥٤ .
(٤) انظر مثلا صفحات ٥٦ ـ ٦٠ ، ١١٣.
(٥) انظر مثلا آخر ص ٨٢ وصفحة ٩٣ ، وآخر ص ١٠٨ وأول ١٠٩ .
(٦) انظر مثلا صفحات ٦٠ ـ ٧٧ .

كما ظهر ذلك من دراستنا السابقة . ولكن مهما يكن لهذه الآثار من أهمية نسبية ؛ فإن عليها تتوقف نواح كثيرة فى حياة اللغة .

وحقاً إنه من الممكن ـ كما تبين ذلك من دراستنا السابقة ـ أن يرد بعض هذه العوامل إلى ظواهر الاجتماع . ولكن قسطا غير يسير منها لا يمت بصلة ما إلى هذه الظواهر ، أو يمت إليها بصلات ضعيفة أو غير مباشرة ، أو يقتضى رده إليها إيغال فى التعسف وإمعان فى التشبث بأوهن الملابسات .

ومن ثم يتبين لنا فساد ما يذهب إليه بعض المتطرفين من علماء الاجتماع ، كالعلامة السويسرى دوسوسور De Saussure ومن نحا نحوه ، إذ يقررون أن جميع المؤثرات فى حياة اللغة ترجع إلى أمور اجتماعية[1] .

٢ — أن اللغة فى مختلف مظاهر حياتها ـ شأنها فى ذلك شأن النظم الاجتماعية الأخرى ـ لا تسير تبعاً للأهواء والمصادفات ولا وفقا لإرادة الأفراد ؛ وإنما تخضع

---

(١) جمع تلاميذ العلامة دوسوسور بعد وفاته طائفة من بحوثه اللغوية القيمة فى كتاب سموه دروس فى علم اللغة Cours de Linguistique Générale (طبع بلوزان سنة ١٩١٦) . — هذا ويفرق دوسوسور فى كتابه هذا بين اللغة Langage والكلام Parole . ويعنى بالكلام تطبيق الفرد فى تفاهمه مع غيره للنظم اللغوية التى تواضع عليها مجتمعه . والكلام فى نظره عمل فردى فى جوهره ، ولذلك يخضع أحيانا لمؤثرات غير اجتماعية (المؤثرات الجسمية والنفسية . . . وما إلى ذلك) . وأما اللغة فظاهرة اجتماعية تنشأ من طبيعة الاجتماع ويشرف عليها العقل الجمعى . ولذلك لا يكاد يكون لغير الظواهر الاجتماعية أثر ذو بال فى شئونها . (انظر كتاب دوسوسور المذكور آنفا) .

وقد انبرى للرد على أصحاب هذا المذهب طائفة من الباحثين فى علم النفس اللغوى ، على رأسها أستاذى المرحوم دولاكروا Delacroix (انظر الفصل الثانى من مؤلفه : « اللغة والفكر Le Langage et la Pensée ») ، وطائفة من علماء اللغة على رأسها العلامة دوزا Dauzat (انظر صفحات ١٨٢ — ١٩٥ من كتابه : « فلسفة اللغة ») .

فى سيرها لقوانين مطردة ثابتة ، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدى إليه .

ولا نقصد بذلك أن نقرر مبدأ الجبرية المطلقة فى حياة اللغة ، ولا أن ننكر إمكان التدخل فى شئونها . ولكننا نقصد بذلك أن نبين أن كل تدخل يتنافر مع القوانين الطبيعية التى تسير عليها اللغة فى حياتها لن يغير شيئا مما تقضى به هذه القوانين ، وأن التدخل المنتج هو الذى يساير هذه القوانين ، ويهيئ الظروف المواتية لتحققها فى الناحية المقصودة . فما ذهب إليه « بيكون » Bacon بصدد التدخل فى الظواهر الطبيعية ، إذ يقرر أنه «لا تمكن السيطرة على الطبيعة إلا بطاعتها ومسايرتها». «To govern nature, you must first obey her» يصدق كذلك على ظواهر اللغة وما إليها من الظواهر الاجتماعية الأخرى .

ومن ثم وجب على كل من يحاول إصلاحا لغويا أن يعمد قبل كل شيء إلى دراسة حياة اللغة ، ومناهج تطورها ، وما تخضع له فى حياتها من قوانين ؛ حتى يتميز له الممكن من المستحيل ، ويستبين له ما يتفق مع السنن الكونية وما يتنافر مع طبيعة الأشياء ، وحتى تأتى إصلاحاته مسايرة لهذه الطبيعة ، فتؤتى أكلها وتكلل بالنجاح .

انتهى طبعه فى { المحرم سنة ١٣٦٥ هـ
يناير سنة ١٩٤٦ م

استدراك

فى السطرين الرابع والخامس من صفحة ٥٥ ، اقرأ : فيما عدا ذلك من المراحل

فى السطر الأول من صفحة ٨٣ ، اقرأ : من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين

فى السطر العاشر من صفحة ٩١ ، اقرأ : والصراع بين العربية والفارسية

فهرس الكتاب

مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية

يشرف على إصدارها: الدكتور على عبد الواحد وافى، رئيس الجمعية — والدكتور عثمان أمين، سكرتيرها العام

يشترك فيها أعلام الباحثين فى الفلسفة والاجتماع. تستأنف النهضة العلمية فى الشرق وتجعل مسائل الفلسفة فى متناول الجميع، ضرورية لكل مثقف وباحث.

ظهر منهـــا :

١ — فيلسوف العرب والمعلم الثانى : للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الجامع الأزهر والرئيس الفخرى للجمعية

٢ — الأسرة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٣ — شخصيات ومذاهب فلسفية : للدكتور عثمان أمين
مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

٤ — الحياة الروحية فى الإسلام : للدكتور محمد مصطفى حلمى
مدرس الفلسفة الإسلامية والتصوف بكلية الآداب

٥ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة : للأستاذ الدكتور أبو العلا عفيفى .
رئيس قسم الفلسفة بجامعة فاروق

٦ — التصوف وفريد الدين العطار : للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام
عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

٧ — المسئوليـة والجزاء : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

٨ — التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام : للدكتور توفيق الطويل
مدرس الفلسفة بجامعة فاروق الأول

٩ — الدين والوحى والإسلام : للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
شيخ الجامع الأزهر والرئيس الفخرى للجمعية

١٠— اللغة والمجتمع : للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
أستاذ الاجتماع بكلية الآداب

